من اتعاظ الحنفا للمقريزي

obeikandl.com

المستعلي بالله أبو القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهرلإعزاز دين الله أبي الحسن علي ابن الحاكم بأمر الله أبي علي منصور

ولد في ثامن عشر المحرم، وقيل في العشرين من المحرم، سنة ثمان وستين وأربعمائة، وبويع له في يوم الخميس الثامن عشر من ذي الحجة، سنة سبع وثمانين وأربعمائة، حين مات أبوه المستنصر، وذلك أن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي عندما مات المستنصر بادر إلى القصر وأجلسه ولقبه بالمستعلي، وبعث فأحضر إليه نزاراوعبد الله وإسماعيل،أولاد المستنصر، فلما حضروا وشاهدوا أخاهم أحمد وكان أصغرهم ، قد جلس على تخت الخلافة أنفوا من ذلك، فأمرهم الأفضل بتقبيل الأرض وقال لهم: تقدموا وقبلوا الأرض لله تعالى ولمولانا المستعلي بالله وبايعوه ، فهو الذي نص عليه الإمام المستنصر، قبل وفاته، للخلافة من بعده. فامتنعوا من ذلك، وقال كل منهم إن والده وعده بالخلافة، وقال نزار: إن قطعت ما بايعت من هو أصغر سنا مني وخط والدي عندي بأني ولي عهده وأنا أحضره، وخرج مسرعا ليحضر الخط، فمضى من حيث لا يشعر به أحد وتوجه في خفية إلى الإسكندرية، فلما أبطا أرسل الأفضل من يستعجله بالحضور، فلم يوجد، وفتش عليه في القصر فلم يوقف له على خبر ولا عرف كيف توجه. فاضطرب الأفضل لذلك، وانزعج انزعاجا شديد .

وقوم يذكرون أن المستنصر كان قد أجلس ابنه أبا المنصور نزارا ، لأنه أكبر أولاده، وجعل إليه ولاية العهد من بعده، فلما قربت وفاته أراد أن يأخذ له البيعة على رجال الدولة، فتقاعد له الأفضل ودافع حتى مات، وذلك أنه كانت بينه وبين نزار مباينة، وكان في نفس كل منهما مباينة من

الآخر لأمور، منها أن نزارا خرج ذات يوم من بعض أماكن القصر فوجد الأفضل قد دخل من أحد أبواب القصر وهو راكب، فصاح به: « انزل يا أرمني يا نجس»، فحقدها الأفضل عليه، وظهرت كراهة أحدهما الآخر. ومنها أن الأفضل كان يعارض نزارا في أموره أيام حياة أبيه ويرد شفاعاته ويضع من قدره، ولايرفع رأسا لأحد من غلمانه وحاشيته، بل يحتقرهم ويقصدهم بالأذى والضرر، فلما عزم المستنصر على أخذ البيعة لنزار اجتمع الأفضل بالأمراء الجيوشية وخوفهم من نزار، وحذرهم من مبايعته، وأشار عليهم بولاية أخيه أحمد فإنه صغير لا يخاف منه، ويؤمن جانبه، فرضوا بذلك وتقرر أمرهم عليه بأجمعهم ما خلا محمود بن مصال اللكي، من قرية يقال لها لك[1] برقة، فإنه لم يوافق لأنه كان قد وعده نزار بأن يوليه الوزارة والتقدمة على الجيوش مكان الأفضل، فلما اطلع على ما قرره الأفضل من ولاية أبي القاسم أحمد مع الأمراء وأنهم قد وافقوه على ترك مبايعة نزار طالعه بجميع ذلك.

وبادر الأفضل فأجلس أبا القاسم ولقب بالمستعلي بالله. وأصبح في بكرة يوم الخميس لاثني عشرة بقيت من ذي الحجة فأخرجه إلى الإيوان، وأجلسه على سرير الملك، وجلس هو على دكة الوزارة، وحضر قاضي القضاة المؤيد بنصر الإمام علي بن نافع بن الكحال، والشهود، فأخذ البيعة على مقدمي الدولة وأمرائها ورؤسائها وجميع الأعيان، ثم مضى إلى عبد الله وإسماعيل ولدي المستنصر، وكانا في مسجد من مساجد القصر وقد وكل بهما الأفضل جماعة يحفظونهما، فقال لهما : إن البيعة قد تمت لمولانا المستعلي بالله، وهو يقرئكما السلام ويقول لكما: تبايعاني أم لا ؟ فقالا: السمع والطاعة، إن الله اختاره علينا، ووقفا قائمين على أرجلهما وبايعاه، وكتب كتاب البيعة وأخرج، فقرأه الشريف سناء الملك محمد بن محمد الحسيني الكاتب بديوان الإنشاء، على عادة الأمراء وجميع أهل الدولة.

وكانت الدعاة عندما بلغهم موت المستنصر اختلفوا فيمن يبايعونه من بعده، فدعا بركات، وهو أمين الدعاة، لعبد الله بن المستنصر ونعته بالموفق، فقبض الأفضل عليه وقتله هو وابن الكحال.

ووصل الخبر بلحاق نزار ومعه محمود بن مصال اللكي بنصر الدولة، وأن نصر الدولة أفتكين التركي ، أحد مماليك أمير الجيوش، وكان على ولاية الإسكندرية، قد بايعه، والقاضي أبو عبد الله محمد بن عمار، وأهل الاسكندرية، وأنه تلقب بالمصطفى لدين الله، فأهم الأفضل ذلك وأخذ في التأهب لمحاربتهم.

وفيها توفي أبو عبد الحسين بن سديد الدولة، ذى الكفايتين، محمد الماسكي، وكان ممن وزر للمستنصر في سنة أربع وخمسين، فلما صرف عن الوزارة سار إلى مدينة صور من الشام فأقام بها عدة سنين، ثم إنه رجع إلى مصر وخدم مشارفا[٢] بالاسكندرية بعد الوزارة، ثم صرف عن المشارفة، وكان من أماثل الكتاب وأحد الأدباء الفضلاء. ومن شعره:

تـــوصـــل إلى ردكيـــد العـــدو
تـــوصـــل ذي الحيلـــة الحازم
وصـــانـــع ببعـــض الـــذي حـــزتـــه
تعـــش عيشـــة الآمـــن الغـــانـــم
ودع مـــا نعمـــت بـــه في القـــديـــ
ـــم، واعمـــل لـــذا الـــزمـــن القـــادم
لعلـــك تسلـــم ممـــا تخاف
ولســـت، إخـــالـــك، بـــالســـالم

وله عدة مصنفات ورسائل.

سنة ثمان وثمانين وأربعمائة:

في آخر المحرم خرج الأفضل بعساكره من القاهرة فسار إلى الإسكندرية لمحاربة نزار وأفتكين، فخرجا إليه في عدة كبيرة وحارباه، فكانت بينهما عدة وقائع بظاهر الإسكندرية انكسر فيها الأفضل ورجع بمن معه منهزما يريد القاهرة، فنهب نزار بمن معه من العرب أكثر بلاد الوجه البحري .

ووصل الأفضل إلى القاهرة، وشرع يتجهز ثانيا لمسيره. ودس إلى أكابر من انتمى إلى نزار من العرب يدعوهم إلى التخلي عنه، واستمالهم بما حمله إليهم من الأموال وما وعدهم به من القطاعات وغيرها،وخرج وقد أعد واستعد، فسار إلى الإسكندرية وقد برزوا إليه، فكانت بينهما حروب آلت إلى هزيمة نزار والتجائه إلى المدينة، فنزل الأفضل عليها، وحاصرها، ونصب عليها المجانيق وألح عليها بالقتال، ومنع عنها الميرة.

فلما كان في ذي القعدة وقد اشتد الأمر على من بالإسكندرية جمع ابن مصال ماله وفر إلى جهة المغرب في ثلاثين قطعة، يريد بلده لك برقة من أجل رؤيا رآها، وهي أنه رأى في منامه كأنه قد ركب فرسا وسار والأفضل يمشي في ركابه، فقص هذه الرؤيا على عابر له فطانة وتمكن في علم التعبير، فقال له الماشي على الأرض أملك لها من الراكب وهذا يدل على أن الأفضل يملك البلاد.

وكانت الأنفس قد ملت طول الحصار ، فلما فر ابن مصال ضعفت نفس نزار وأفتكين وتخوفا ممن حولهما، فبعثا إلى الأفضل يسألان الأمان، فأمنهما، وتمكن من البلد، وقبض على نزار وأفتكين، وسير بهما مصر، فيقال إنه سلم نزارا لأهل القصر من أصحاب المستعلي، وأنه بني عليه حائط ومات، وقيل إنه قتل بالاسكندرية، والأول أصح.

وكان مولده يوم الخميس العاشر من ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وأربعمائة. والإسماعيلية وملاحدة العجم وملاحدة الشام تعتقد إمامته وتزعم أن المستنصر كان قد عهد إليه وكتب اسمه على الدينار والطرز، وأن المستنصر قال للحسن بن صباح إنه الخليفة من بعده.

وكان للمستنصر أولاد فروا إلى المغرب، منهم محمد وإسماعيل وطاهر، وعاد منهم في خلافة الحافظ واحد إلى مصر ولا عقب له.

وأما أفتكين فإنه قتل بعد قدوم الأفضل إلى مصر. أما ابن مصال فإنه وصل لك ولقيه أهلها، وكان قد خرج منها صبيا فقيرا، فأقام عندهم أياما. واتفق أن رأى عجوزا عرفته، فقالت له: كبرت يا محمود! فقال لها: نعم. فقالت له: لعلك جئت مع صاحب هذه المراكب؟ فقال: أنا صاحبها. فقالت: ماذا يعمل عدم الرجال! ولم يزل يبعث إليه الأفضل بالأمان حتى قدم عليه، فلزم داره مدة، ثم رضي عنه الأفضل وأكرمه.

وكان الأفضل لما قبض على نزار وتمكن من الإسكندرية تتبع جميع من كان معه ومن مالأه أو أعانه، فقبض على كثير من وجوه البلد، منهم قاضي الثغر أبو عبد الله محمد بن عمار واعتقله مدة ثم قتله، وكان حسنة من حسنات الدهر ونخبة من نخب العصر، وحظي عنده بنو حارثة، وكانوا من عدول البلد، لأنهم لم يبايعوا نزارا ولم يدخلوا في شيء من ذلك، وكانوا يهادون الأفضل سرا، وولى قضاء الإسكندرية عوضا عنه القاضي أبا الحسن زيد بن الحسن بن حديد، وبالغ في إكرامه وإكرام أهل بيته.

وكان الأفضل وهو على حصار الإسكندرية يخرج أمه فتطوف في كل يوم، وهي متنكرة بالأسواق، وتدخل يوم الجمعة إلى الجوامع وتزور المشاهد والمساجد والربط تستعلم خبر ولدها وتعرف من يحبه ومن

يبغضه، فدخلت يوما إلى مسجد أبي طاهر وجاءت إلى ابن سعد الإطفيحي وقالت له: يا سيدي، ولدي في العسكر مع الأفضل، الله تعالى يأخذلي منه الحق،ما فعل خيرا، وأنا ما أنام خوفا على ابني،ادع الله أن يسلم ولدي، فقال لها: يا أمة الله، أما تستحين، تدعين على سلطان الله في أرضه، المجاهد عن دين الله تعالى، الله ينصره ويظفره ويسلمه ويسلم ولدك، ما هو إن شاء الله إلا منصور مؤيد مظفر، كأنك به وقد فتح الإسكندرية وأسر أعداءه، وأتى على أحسن قضيةوأجمل طوية، فلا يشغل لك سر، فما يكون إلا الخير إن شاء الله.

ثم اجتازت بالفار الصيرفي بالسراجين من القاهرة، فوقفت عليه تصرف منه دينارا ــ وكان إسماعيليا متغاليا ــ فقالت له: ولدي مع الأفضل وما أدري ما خبره، فقال لها: لعن الله المذكور الأرمني الكلب العبد السوء بن العبد السوء، مضى يقاتل مولانا ومولى الخلق؟ كأنك والله يا عجوز برأسه جائزا من هنا على رمح قدام مولانا نزار ومولاي ناصر الدولة إن شاء الله تعالى [٣]، والله يلطف بولدك، من قال لك تخليه يمضي مع هذا الكلب المنافق

ثم وقفت يوما آخر على ابن بابان الحلبي، وكان بزازا بسوق القاهرة، تشتري منه شيئا ـ وكان نزاريا ـ فقالت له كقولها للفار الصيرفي، فقال لها كما قال أيضا، وبالغ في لعن الأفضل وسبه.

فلما أخذ الأفضل نزارا وناصر الدولة، وفتح الإسكندرية، وقدم إلى القاهرة في يوم [٤].... حدثته أمه الحديث بنصه. فلما خلع عليه في القصر بين يدي الخليفة المستعلي في يوم[٤] وعاد إلى مصر اجتاز بالبزازين وهو بالخلع، ونظر إلى ابن بابان الحلبي وقال: أنزلوا هذا، فنزلوا به، فضربت عنقه تحت دكانه، ثم قال لعبد علي، أحد مقدمي ركابه: قف هنا لا يضيع له شيء من دكانه إلى أن يأتي أهله فيتسلموا قماشه، ثم وصل إلى

السراجين، فلما تجاوز دكان الفار الصيرفي التفت إلى جهته وقال: انزلوا بهذا، فنزلوا به، فقال: رأسه، فضربت عنقه، وقال ليوسف الأصفر أحد مقدمي الركاب: احتط على حانوته إلى أن يأتي أهله ويتسلموا موجوده، وإياك ماله وصندوقه، وإن ضاع منه درهم ضربت عنقك مكانه، كان لنا خصما أخذناه وفعلنا به ما نردع به غيره عن فعله، وما لنا في ماله ولافي فقر أهله حاجة.

ثم أتى إلى الشيخ أبي طاهر الإطفيحي، وقربه وتخصص به، وأطلعه على أغراضه وأكثر من التردد إليه،وأجرى الماء إلى مسجده، وبنى له فيه حماما وبستانا وغير ذلك من المباني. فعظم قدر الإطفيحي به، وكثر غشيان الناس مسجده، وطار ذكره، وشاع خبره، وكثرت حاشيته، وصار المشار إليه بالديار المصرية حتى مات.

وفيها قام ببغداد تاجر يعرف بحامد الأصفهاني فتكلم بأن نسب الخلفاء الفاطميين صحيح، فقبض عليه واعتقل حتى مات.

وخرج الأمر بجمع الناس إلى بيت النوبة، ببغداد، فجمعوا في تاسع ربيع الآخر، وحضر بنو هاشم وغيرهم إلى الديوان، وقرىء توقيع أوله خطبة تشتمل على حمد الله تعالى والثناء عليه، وتذكر طاعة الأئمة وفضل العباس وما جاء فيه من الأخبار، ثم قال: « أما بعد، فإنه لم يخل وقت ولا زمان من مارق على الدين، وسارع في تفرق كلمة المسلمين ليبلوالله المجاهدين فيهم والصابرين، ويصلى أكثر العاكفين نار جهنم التي أعدت للكافرين. وهذه الطائفة المارقةمن الباطنية الملحدين، والكفرة المستسلمين، انتهكوا المحارم، واستحلوا الكبائر، وأراقوا الدماء، وكذبوا بالذكر، وانكروا الآخرة، وجحدوا الحسنات والجزاء، وفصلوا أعضاء المسلمين، وسملوا أعين الموحدين، وأنكروا الآخرة، وجحدوا، الدين وفقهاءه، وأعلنوا بالشرك ونداءه». ثم رماهم بالفسوق والإهمال

والانحلال، وقال: شاعرهم يقول:

حـــــل بـــــرقـــــادة[٥] المسيح

حـــــــــل بها آدم ونـــــــــوح

سنة تسع وثمانين وأربعمائة

فيها خرج خلف بن ملاعب من عند الأفضل لولاية فامية، فسار إليها وتسلمها.

وكان سبب ذلك أن أهلها كانوا إسماعيلية، فقدموا إلى القاهرة وسألوا أن يجهز إليهم من يلي أمرهم، فوقع الاختيار على خلف بن ملاعب، وكان قد ولي مدينة حمص وساءت سيرته في أهلها، فبعث إليه السلطان ملك شاه من العراق من قبض عليه وحمله إليه بأصفهان، فاعتقله بها إلى أن مات، فأطلق وسار إلى مصر فأقام بها حتى خرج إلى فامية

سنة تسعين وأربعمائة

فيها وقع بمصر غلاء ومجاعة.

في سادس عشر صفر قدم على الأفضل رسول فخر الدولة رضوان بن تتش صاحب حلب وأنطاكية وهم.... بن الحلال و [٦] ابن البوين كاتب عز الدولة ابن منقذ[٧]، صحبة رسول الأفضل الشريف شجاع الدولة ابن أبي سوية وقدم معهم شرف الدولة ... الباهلي الشاعر،وكان قد قدم مصر ومدح أمير الجيوش بدر الجمالي، فأجيب بالشكر والثناء وخطب بها للمستعلي بالله في يوم الجمعة سابع عشر رمضان، وكان سبب هذا الفعل من رضوان أنه قصد أن يستعين بعساكر مصر على أخذ دمشق من أخيه دقاق. فاتفق أن الأمير سكمان بن أرتق أنكر على رضوان ذلك، فقطع خطبة المستعلي، وأعاد الخطبة لبني العباس، فكان

مدة الخطبة للمستعلي أربعة أشهر.

وفي ربيع الأول جهز الأفضل عسكرافي عدة وافرة لأخذ صور فسار إليها وحاصرها حصارا شديدا حتى أخذت بالسيف، فدخلها العسكر وقتلوا منها بالسيف خلقا كثيرا، وقبض على واليها وحمل إلى الأفضل فقتله لأنه كان قد خرج عن الطاعة وعصى على الأفضل.

وفيها كان ابتداءخروج الإفرنج من بلاد القسطنطينية لأخذ بلاد الساحل من أيدي المسلمين، فوصلوا إلى مدينة أنطاكية ونازلوها حتى ملكوها، ومنها دبوا إلى بلاد الساحل.

وفيها تجمع الرعاع والعامة في يوم عاشوراء بمشهد السيدة نفيسة(٨) وجهروا بسب الصحابة، وهدموا عدة قبور، فسير الأفضل إليهم ومنعهم من ذلك، وأدب ذخيرة الملك ابن علوان، والي القاهرة، جماعة وضربهم.

وفيها حرر الأفضل في المحرم عيار الدينار وزاد فيه.

[إعلم إن الفرنج من ولد ريغاث بن كومر بن يافث بن نوح، فهم أخوة الصقالبة والخزر والترك، ويقال بل هم من ولد عطريا بن غومر وهوكومربن يافث، ويسكنون شمالي البحر الرومي من خليج رومه إلى ما وراءه غربا وشمالا، وكانوا أولا تحت أيدي اليونان والروم، ثم استقلوا بعدهم بملكهم، وافترقوا، فكان منهم القوط والجلالقة بالأندلس حتى أخذها منهم المسلمون، وكان منهم اللمانيون بجريرة انكلطرة بالبحر المحيط الغربي الشمالي، وما يقابله وما يحاذيه، وكان منهم افرنسة، وهم افرنجةفملكوا ما وراء خليج روما غربا إلى الثنايا التي تفضي إلى الأندلس في الجبل المحيط بها من شرقيها، وتسمى هذه الثنايا البرت، وعظمت دولتهم بعد الروم في أثناء الاسلام، وعرفوا بالأفرنسيس، وتغلبوا على جزائر البحر الرومي في آخر المائة الخامسة، وكان ملكهم حينئذ

اسمه بردويل، فبعث رجار إلى صقلية وملكها من المسلمين سنة ثمانين وأربعمائة، ثم ساروا في البحر على قسطنطينية وعبروا من الخليج سنة تسعين وأربعمائة، حتى نزلوا عواصم الروم، وحاربوا قليج أرسلان بن سليمان بن قطلمش بن اسرائيل بن سلجوق،ملك قونية، فأخذوا منه أنطاكية، وهم خمسة ملوك: بردويل، وصنجيل، وكندفري، والقمص، وبيمند وهو مقدمهم، فولوه أنطاكية، ثم ملكوه معرة النعمان، ونازلوا حمص، ثم عكا، ثم حصروا القدس حتى أخذت كما سيأتي إن شاء الله][٩]

سنة احدى وتسعين وأربعمائة:

فيها خرج الأفضل في عساكر جمة، ورحل من القاهرة في شعبان، وسار يريد أخذ بيت المقدس من الأمير سكمان وإيلغازي، ابني أرتق، وكانا به في كثير من أصحابهما، فبعث إليهما يلتمس منهما أن يسلماه البلد ولا يحوجاه إلى الحرب، فأبيا عليه، فنزل على البلد ونصب عليها من المجانيق نيفا وأربعين منجنيقا، وأقام عليها يحاصرها نيفا وأربعين يوما حتى هدم جانبا من السور، ولم يبق إلا أخذها، فسير إليه من بها ومكناه من البلد، فخلع على ولدي أرتق وأكرمهما، وأخلى عنهما، فمضيا بمن معهما، وملك البلد في شهر رمضان لخمس بقين منه، وولى فيه من قبله، ثم رحل إلى عسقلان، وكان فيها مكان قد دفن فيه رأس الحسين بن علي ابن أبي طالب عليه السلام، فأخرجه وعطره وحمله في سفط إلى أجل دار بها، وعمر مشهدا مليح البناء، فلما تكامل حمل الرأس في صدره وسعى به ماشيا من الموضع الذي كان فيه إلى أن أحله في مقره. ويقال إن أمير الجيوش هو الذي أنشأ المشهد على الرأس بثغر عسقلان، وأن ابنه الأفضل شاهنشاه كمله، ثم حمل هذا الرأس إلى القاهرة، فوصل إليها يوم الأحد ثامن جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

وفيها حدثت بمصر ظلمة عظيمة عشت أبصار الناس حتى لم يبق أحد يعرف أين يتوجه، ثم هبت ريح سوداء شديدة، فظن الناس أن الساعة قد قامت، واستمرت الريح سبع ساعات وانجلت الظلمة قليلا قليلا وسكنت الريح، ولم يصل في ذلك اليوم أحد صلاة الظهر ولا العصر، ولا أذن في القاهرة ولا مصر.

سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة:

فيها سار الفرنج لأخذ سواحل البلاد الشامية من أيدي المسلمين، فملكوا مدينة أنطاكية وساروا إلى المعرة فملكوها، ثم رحلوا عنها إلى جبل لبنان فقتلوا من به، ووصلواعرقة فحاصروها أربعة أشهر فلم يقدروا عليها، ونزلوا على حمص، فهادنهم جناح الدولة حسين، وخرجوا على طريق النواقير إلى عكا، ثم أخذوا الرملة في ربيع الآخر، وزحفوا منها إلى بيت المقدس فحاصروا المدينة، وبلغ ذلك الأفضل فخرج بعساكر كثيرة لمحاربتهم، فجد الفرنج،عندما بلغهم مسيره إليها،في حصار المدينة، وكان نزولهم عليها في شهر ربيع الآخر، حتى ملكوها يوم الجمعة الثاني والعشرين من شعبان بعد أربعين يوما.

وهدموا المشاهد وقبر الخليل عليه السلام، وقتلوا عامة من كان في البلد، وكان فيه من العباد والصلحاء والعلماء والقراء وغيرهم خلائق لا يقع عليهم حصر، فوضعوا السيف فيهم وأفنوهم عن آخرهم، ولم يفلت منهم إلا اليسير. وانحازت عدة من المسلمين إلى محراب داود عليه السلام فحاصرهم الفرنج نيفا وأربعين يوما حتى تسلموه بالأمان في يوم الجمعة ثاني عشريه. وأحرقوا ما كان ببيت المقدس من المصاحف والكتب، وأخذوا ما كان بالصخرة من قناديل الذهب والفضة والالآت، وكان مبلغا عظيما.ويقال إنه قتل في المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا، وأنهم لحقوا من فر من المسلمين مسيرة أسبوع يقتلون من أدركوه منهم.

ووصل الأفضل إلى عسقلان في الرابع عشر من شهر رمضان، فبعث إلى الفرنج فوبخهم على ما كان منهم، فردوا إليه الجواب، وركبوا في إثر الرسل فصدفوه على غرة وأوقعوا بعساكره وقتلوا منهم كثيرا. وانهزم منهم بمن خف معه فتحصن بعسقلان وتعلق أكثر أصحابه هنالك في شجر الجميز، فأضرموا فيها النار حتى احترقت بمن تعلق فيها، فهلك خلق كثير وحاز الفرنج من أموال المسلمين ما جل قدره، ولا يمكن لكثرته حصره.

ونازلوا عسقلان، وحصروا الأفضل فيها حتى كادوا يأخذونه، إلا أن الله سبحانه أوقع فيهم الخلف فاضطروا إلى الرحيل عن عسقلان، فاغتنم الأفضل رحيلهم عنه فركب البحر وقد ساءت حاله، وذهبت أمواله، وقتلت رجاله، وسار إلى القاهرة، ولم يعد بعد هذه الحركة إلى الخروج بنفسه في حرب ألبتة.

وكان ملك الفرنج بالقدس كندفري.

وفيها توفي أبو الحسن علي بن الحسن بن الحسين بن محمد الموصلي الحنفي المحدث في ثامن عشر ذي الحجة.

سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة:

فيها(جفل) عالم لا يحصى عددهم من البلاد الشامية فرارا من الفرنج والغلاء.

وفيها عم الغلاء أكثر البلاد، ومات من أهل مصر خلق كثير.

وفيها مات قاضي القضاة أبو الطاهر محمد بن رجاء، وتولى بعده أبو الفرج محمد بن جوهر بن ذكا النابلسي.

ومات علي بن محمد بن علي الصليحي، قتله سعد بن نجاح الأحول، وقتل أخاه عبدالله وجميع بني الصليحي بمكة من ذي القعدة.

وولي الحسن بن علي بن أحمد الكرخي الحكم شهرا واحدا وثلاثة أيام، وصرف وصودر من أجل أنه أخذ عصابة من القصر في أيام الشدة لها قيمة، فظهرت عليه.

سنة أربع وتسعين وأربعمائة:

في شعبان جهز الأفضل عسكرا كثيفا لغزو الفرنج، فساروا إلى عسقلان، ووصلوا إليها في أول رمضان، فأقاموا بها إلى ذي الحجة، فنهض إليهم من الفرنج ألف فارس وعشرة آلاف راجل، فخرج إليهم المسلمون وحاربوهم، فكانت بين الفريقين عدة وقائع آلت إلى كسر الميمنة والميسرة وثبات سعد الدولة الطواشي، مقدم العسكر، في القلب، وقاتل قتالا شديدا، فتراجع المسلمون عند ثبات المذكور وقاتلوا الفرنج حتى هزموهم إلى يافا، وقتلوا منهم عدة وأسروا كثيرا، وقتل كندفري ملك الفرنج بالقدس، فجاء أخوه بغدوين من القدس وملك بعده، وسار بالفرنج إلى أرسوف.

وفيها مات القمص رجار بن تنقرد، صاحب جزيرة صقلية، فقام من بعده ابنه رجار بن رجار.

وفيها نزل الفرنج على حيفا وقتلوا أهلها، وتسلموا أرسوف بالأمان، وملكوا قيسارية عنوة في آخر شهر رجب وقتلوا من بها، وملكوا مع ذلك يافا، مع ما بأيديهم من أعمال الأردن وفلسطين.

سنة خمس وتسعين وأربعمائة:

فيها مات الخليفة أبو القاسم أحمد المستعلي بالله بن المستنصر في ليلة السابع عشر من صفر، وعمره سبع وعشرون سنة وشهر واحد وتسعة وعشرون يوما، ومدة خلافته سبع سنين وشهر واحد وعشرون يوما.

نقش خاتمة« الإمام المستعلي بالله».

وفي أيامه اختلت دولتهم وضعف أمرهم، وانقطعت من أكثر مدن الشام دعوتهم، وانقسمت البلاد الشامية بين الأتراك الواصلين من العراق وبين الفرنج، فإنهم، خذلهم الله، دخلوا بلاد الشام، ونزلوا على أنطاكية في ذي القعدة سنة تسعين وأربعمائة وتسلموها في سادس عشر رجب سنة إحدى وتسعين، وأخذوا معرة النعمان في سنة اثنتين وتسعين، وأخذوا الرملة ثم بيت المقدس في شعبان، ثم استولوا على كثير من بلاد الساحل، فملكوا قيسارية في سنة أربع(وتسعين) بعدما ملكوا عدة بلاد

وفي أيامه فر أخوه نزار إلى الاسكندرية، وقتل في الحروب التي كانت بينه وبين الأفضل خلق كثير، وأخذ وقتل بعد ذلك.

وفي أيامه أيضا افترقت الإسماعيلية فصاروا فرقتين: نزارية، تعتقد إمامة نزار وتطعن في إمامة المستعلي، وترى أن ولد نزار هم الأئمة من بعده يتوارثونها بالنص، والفرقة المستعلوية، ويرون صحة إمامة المستعلي ومن قام بعده من الخلفاء بمصر، وبسبب ذلك حدثت فتن، وقتل الأفضل فيما يقال وقتل الآمر، كما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

ولم يكن للمستعلي سيرة فتذكر، فإن الأفضل كان يدبر أمر الدولة تدبير سلطنة وملك لا تدبير وزارة.

وخلف المستعلى من الأولاد ثلاثة، هم الأمير أبو علي المنصور، والأمير جعفر، والأمير عبد الصمد.

وكانت قضاة مصر في خلافته: أبو الحسن ابن الكحال، ثم عزل بابن عبد الحاكم المليجي، ثم ولي أبو الطاهر محمد بن رجاء، ثم أبو الفرج محمد بن جوهر بن ذكا، ومات المستعلي وهو قاض.

وقيل إن المستعلي مات مسموما، وقيل بل قتل سرا.

وكان [المستعلي بن] المستنصر [١٠] قد عقد نكاحه على ست الملك ابنة أمير الجيوش بدر، فمات قبل أن يبني عليها، وكان أمير الجيوش قد جهزها جهازا عظيما [١١] وأكثر من شراء الجواهر العظيمة القدر لها، فلما مات انتهب أولاده ذلك وتفرقوه [١٢]

وفيها أخذ صنجبيل، أحد ملوك الفرنج، طرابلس، فصار للفرنج القدس وفلسطين إلا عسقلان، ولهم من بلاد الشام يافا، وأرسوف، وقيسارية، وحيفا، وطبرية، والأردن، ولاذقية، وأنطاكية، ولهم من الجزيرة الرها، وسروج، ثم ملكوا جبيل، ومدينة عكا، وأفامية، وسرمين من أعمال حلب، وبيروت، وصيدا، وبانياس، وحصن الأثارب

الآمر بأحكام الله أبو علي المنصور بن المستعلي بالله أبي القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد

ولد ضحى يوم الثلاثاء الثالث عشر من المحرم سنة تسعين وأربعمائة، وبويع له بالخلافة في اليوم الذي مات فيه أبوه وهو طفل له من العمر خمس سنين وشهر وأيام، في يوم الثلاثاء سابع عشر صفر سنة خمس وتسعين. أحضره الأفضل وبايع له، ونصبه مكان أبيه، ونعته بالآمر بأحكام الله.

وكتب ابن الصيرفي سجلا عظيما، أبدع فيه ما شاء، بانتقال الإمام المستعلي إلى رحمة الله وولاية ابنه الآمر، وقرىء على رؤوس الكافة من الأمراء والأجناد وغيرهم.

وأنشد ابن مؤمن الشاعر قصيدة طنانة يمدح الآمر. وركب الأفضل فرسا وجعل في السرج شيئا أركب الآمر عليه لينمو شخصه وصار ظهر الآمر في حجر الأفضل. (١٣)

سنة ست وتسعين وأربعمائة :

فيها ندب الأفضل مملوك أبيه سعد الدولة القواسي على عسكر لقتال الفرنج، فلقيهم بغدوين على يبنا، فكسرت عساكر الأفضل وتقنطر سعد الدولة فمات، وأخذ الفرنج خيمه فانهزم أصحابه. وبلغ (الأفضل) ذلك فجرد في أول شهر رمضان عسكرا قدم عليه ابنه شرف المعالي سماه الملك حسينا، وسير الأسطول في البحر، فاجتمعت العساكربيازور، من بلاد الرملة، وخرج إليهم الفرنج، فكانت بينهما حروب هزمهم الله فيها بعد مقتلة عظيمة، ونزل شرف المعالي على قصر كان قد بناه الأفشين قريبا من الرملة فيه سبعمائة قومص من وجوه الفرنج، فقاتلوه خمسة عشر يوما ثم ملكهم وضرب رقاب أربعمائة، وبعث إلى القاهرة ثلاثمائة.

وكان أصحاب شرف المعالي قد رأى بعضهم أن يمضوا إلى يافا ويملكوها، ورأى بعضهم أن يسيروا إلى القدس، فبينما هم في ذلك وصل مركب من الفرنج لزيارة قيامة، فندبهم بغدوين للغزو معه، فساروا إلى عسقلان وقد نزلها شرف المعالي وامتنع بها، وكانت حصينة، فتركها الفرنج ومضوا إلى يافا، وعاد شرف المعالي إلى القاهرة بعدما كتب إلى شمس الملوك دقاق، صاحب دمشق، يستنجده لقتال الفرنج، فتقاعد عن المسير واعتذر.

فجرد الأفضل أربعة آلاف فارس وعليهم تاج العجم[١٤] ... بمن معه عسقلان، ونزل ابن قادوس على يافا، وبعث يستدعي تاج العجم ليتفقا على الحرب، فلم يجبه، وتنافرا، فلما بلغ ذلك الأفضل بعث يقبض على تاج العجم، وولى الملك رضوان تقدمه العسكر وسيره إلى عسقلان، فأقام عليها إلى آخر سنة سبع وتسعين حتى قدم شرف المعالي بعساكر مصر.

وفيها مات تنكري ملك الفرنج بالساحل، فقام بعده سرجار ابن أخيه.

سنة سبع وتسعين وأربعمائة:

فيها نازل بغدوين، ملك الفرنج وصاحب القدس، ثغر عكا وحاصر أهله، وألح عليهم حتى ملكه. وكان فيه من قبل الأفضل يومئذ زهر الدولة نبا الجيوشي، ففر إلى دمشق، وصار إلى ظهير الدين[١٥] أتابك، فأكرمه وأحسن إليه، ثم جهز إلى الأفضل فأنكر عليه وهدده على تضييع الثغر، ولم تعد بعدها عكا للمسلمين.

سنة ثمان وتسعين وأربعمائة:

فيها جمع الأفضل جموعا كثيرة من العربان وأنفق فيهم أموالا عظيمة، وجهزهم صحبة العساكر مع ابنه شرف المعالي، وكتب لظهير الدين أتابك، صاحب دمشق، بمعاونته ومعاضدته على محاربة الفرنج، فاعتذر عن حضوره بما هو مشغول به من مضايقة بصرى،فإن أرتاش ابن تاج الدولة صاحب بصرى كاتب الفرنج وأغراهم بقتال المسلمين وأطمعهم في البلاد، فسار أتابك من دمشق وحاصر بصرى، وجهز عسكرا إلى

شرف المعالي تقوية له على الفرنج، وقدم عليه إصبهبذ صباو بن جهارتكين، وعدته ألف وثلاثمائة فارس من الأتراك، وعدة عسكر مصر خمسة آلاف فارس.

وأتاهم بغدوين في ألف وثلاثمائة فارس وثمانية آلاف راجل. فاجتمعت عساكر المسلمين بظاهر عسقلان، ودارت بينهم وبين الفرنج حروب كان ابتداؤها في الرابع عشر من ذي الحجة فيما بين عسقلان ويافا، فانكسرت عساكر المسلمين واستشهد فوق الألف من المسلمين منهم جمال الملك ربيع الإسلام والي عسقلان، وأخذ الفرنج رايته، وأسر الفرنج زهر الدولة نبا الجيوشي، وقتل ألف ومائتان من الفرنج، ورجعوا وقد كانت الكرة لهم على المسلمين، وعاد عسكر دمشق إلى أتابك وهو على بصرى.

وفيها مات كنز الدولة [١٦] محمد في ثامن شعبان، وقام من بعده أخوه فخر العرب

سنة تسع وتسعين وأربعمائة:

في سادس عشر رجب قتل خلف بن ملاعب صاحب فامية، قتله طائفة من الباطنية. وملك الفرنج عكا عنوة في سلخ شعبان من زهر الدولة نبا الجيوشي، فسار إلى دمشق ثم قدم مصر.

سنة خمسمائة

أهلت والخليفة بمصر الآمر بأحكام الله، ومدبر سلطنة مصر الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي، وليس للآمر معه حل ولا ربط، وليس له من الأمر سوى اسم الخلافة، والذي في مملكته: ديار مصر، وغزة، وعسقلان، وصور، وطرابلس لاغير .

وفيها بنى الأفضل دار الملك بشاطىء النيل من مدينة مصر.

وفيها سار متولي صور فأوقع بالفرنج على تبنين، فقتل وأسر جماعة، وعاد إلى صور، فسار بغدوين إليه من طبرية ، فركب طغتكين من دمشق، وأخذ للفرنج حصنا بالقرب من طبرية وأسر من كان فيه منهم.

وفيها ملك قليج أرسلان بن سليمان بن قطلمش بن أرسلان يبغو بن سلجوق، صاحب قونية، الموصل في شهر رجب، فقتل في ذي القعدة منها، وقام بعده بقونية وأقصر ا ابنه مسعود

سنة إحدى وخمسمائة:

فيها نزل بغدوين على ثغر صور وعمر حصنا مقابل حصن صور على تل المعشوقة، وكان على ولاية صور من قبل الأفضل سعد الملك كمشتكين، أحد المماليك الأفضلية، فصانع بغدوين على سبعة آلاف دينار وخرج من صور.

وفيها أحضر إلى القاهرة أهل فخر الدولة أبي علي عمار بن محمد بن ابن عمار من طرابلس، وكثير من أمواله وذخائره ، وذلك أن فخر الدولة حاصره الفرنج وأطالوا منازلته حتى ضاق ذرعه وعجز عن مقاومتهم، فخرج من طرابلس في سنة خمسمائة ومعه هدايا جليلة، فلقي ظهير

الدين طغتكين أتابك بدمشق، فأكرمه ووافقه على السيرمعه إلى بغداد ليستنجد بالسلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه، فسارا، ثم إن أتابك تركه وعاد الى دمشق، فثار في هذه المدة أبو المناقب ابن عمار على ابن عمه فخر الدولة، ونادى بشعار الأفضل وأرسل يطلب منه من يتسلم منه طرابلس، فبعث إليه الأفضل بالأمير شرف الدولة ابن أبي الطيب، فدخل إلى طرابلس ونقل منها حريم فخر الدولة وأمواله، ففت ذلك فى عضد فخر الدولة

وفيها اتصل أبو عبد الله محمد بن الأمير نور الدين أبي الشجاع فاتك بن الأمير منجد الدولة أبي الحسن مختار بن الأمير أمين الدولة أبي علي حسن بن تمام المستنصري الأحول الإمامي الشيعي المعروف بالمأمون ابن البطائحي، بخدمة الأفضل أبي القاسم شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر المستنصري، وسبب ذلك تغير الأفضل على تاج المعالي مختار الذي كان اصطنعه وفخم أمره وسلم إليه خزائن أمواله وكسواته، فسلم لأخويه ما يتولاه واستعان بهما فيه، فحصل لهم من الإدلال على الأفضل ما حملهم على مد أيديهم إلى أمواله وذخائره، وشاع أمرهم وكتب إلى الأفضل بسببهم ، فتغير عليهم، وأخرج مختارا لولاية الغربية، وخلع عليه، فلما انحدروا إليها سير صاحب بابه سيف الملك خطلخ، ويعرف بالبغل، وكان من غلمان أبيه، فقبض عليه وعلى أخوته من العشاري، وكبل بالحديد ورمي بالاعتقال، وأشيع أن مختارا كاتب الفرنج، وجعل هذا هو العذر في القبض عليه، وأنه كان أراد قتل الأفضل.

فلما جرى لمختار وإخوته ما جرى ألزم الأفضل أبا عبد الله بن فاتك بتسلم ما كان بيد مختار من الخدمة، فتصرف فيها، وقرر له الأفضل ما كان باسم مختار من العين خاصة دون الإقطاع، وهو مائة دينار في كل شهر وثلاثون دينارا عن جاري الخزائن، مضافا إلى الأصناف الراتبة مياومة ومشاهرة ومسانهة، وحسن عند الأفضل موقع خدمته،فسلم له جميع أموره، وصرفها في كل أحواله، ولما كثر الشغل عليه استعان

بأخويه: أبي تراب حيدرة، وأبي الفضل جعفر، فأطلق لهما الأفضل ما وسع به عليهما، ونعت الأفضل أبا محمد ابن فاتك بالقائد

فيها فتح ديوان سمي بديوان التحقيق، تولاه أبو البركات يوحنا بن أبي الليث النصراني، وكان يتولى ديوان المجلس رجل يعرف بابن الأسقف، وكان قد كبر وضعف فتحدث ابن أبي الليث مع القائد أبي عبد الله في الدواوين والأموال والمصالح، وفاوض في ذلك الأفضل، واتفق موت ابن الأسقف، فتسلم ابن أبي الليث الدواوين واستمر فيها حتى قتل في سنة ثمان عشرة وخمسمائة.

وفيها تحدث ابن الليث في نقل السنة الشمسية إلى العربية، وكان قد حصل بينهما تفاوت أربع سنين، فأجاب الأفضل إليه، وخرج أمره إلى الشيخ أبي القاسم ابن الصيرفي بإنشاء سجل به، ثم رأى اختلال أحوال الرجال العسكرية والمقطعين، وتضررهم من حسبة ارتفاع إقطاعاتهم وسوء حالهم، وصار في كل ناحية للديوان جملة تجبى بالعسف وتتردد الرسل من الديوان بسببها، فحملت الإقطاعات كلها على أملاك البلاد، وأمر ضعفاء الجند بالزيادة في الاقطاعات التي للأقوياء، فتزايدوا إلى أن انتهت الزيادة، فكتبت السجلات بأنها باقية في أيديهم مدة ثلاثين سنة ما يقبل منهم فيها زائد، وأمر الأقوياء أن يبذلوا في الإقطاعات التي كانت بيد الأجناد ما تحتمله كل ناحية، فتزايدوا فيها حتى بلغت إلى الحد الذي رغب كل منهم فيه، فكتبت لهم السجلات على الحكم المتقدم، فشملت المصلحة الفريقين وطابت نفوسهم، وحصل للديوان بلاد مقورة [١٦] بما كان مفرقا في الإقطاعات بما مبلغه خمسون ألف دينار.

وفيها فرغ بناء دار الملك، وكان الأفضل يسكن القاهرة فتحول إلى مصر، وسكن دار الملك على النيل واستقر بها، فقال الشعراء فيها عدة قصائد.

وفيها بانت كراهة الأفضل لأولاده واحتجب عنهم أكثر الأوقات، فانقطعوا عنه واستقروا بالقاهرة في دار القباقب التي كانت سكن أبيهم الأفضل، وهي الدار التي عرفت بدار الوزارة، ولم يبق من أولاده من يتردد إليه سوى سماء الملك فإنه كان يؤثره ويميل إليه.

وأفرد الأفضل للقائد أبي عبد الله بن فاتك الموضع المعروف باللؤلؤة (١٧).

وفيها وردت الأخبار بأن متملك النوبة، قد تجهز برا وبحرا وعول على قصد البلاد القبلية، فسير الأفضل عسكرا إلى قوص، وتقدم إلى والي قوص بأن يسير بنفسه إلى أطراف بلاد النوبة، فورد الخبر بوثوب أخي الملك عليه وقتله. واشتدت الفتنة بينهم حتى باد أهل بيت المملكة وأجلس صبي في الملك، فأرسلت أمه تستجير بعفو الأفضل وتسأله ألا يسير إليهم من يغزوهم، فكتب لوالي الصعيد الأعلى بأن يسير عسكرا إلى أطراف بلاد النوبة، ويبعث إليهم رسولا يجدد عليهم القطيعة الجاري بها العادة، وهي كل سنة ثلاثمائة وستون رأسا رقيقا بعد أن يستخلص منهم ما يجب عليهم في السنين المتقدمة.

فلما رحلت العساكر نحوهم دخلوا تحت الطاعة، وكتبوا المواصفات وسألوا في الإعفاء عما يخص السنين، وحملوا ما تيسر لهم، وعادت العساكر كاسبة.

وفيها كثر خوض الناس في القرآن هل هو محدث أو قديم، وتفاقم الأمر فعرف الأفضل، فأمر بإنشاء سجل بالتحذير من الخوض في ذلك، وركب بنفسه إلى الجامع بمصر، وجلس في المحراب بجوار المنبر، وصعد الخطيب أربع درجات منه وقرأ السجل على الناس.

وفيها مات مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان صاحب قونية

وأقصرا، فقام بعده ابنه قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان، وقسم أعماله بين أولاده (١٨).

سنة اثنتين وخمسمائة:

في رمضان ورد الخبر بأن أهل مدينة طرابلس الشام نادوا بشعار الدولة عند خروج فخر الملك أبي علي عمار بن محمد بن الحسين بن قندس بن عبد الله بن ادريس بن أبي يوسف الطائي منها، وقصده بغداد لطلب النجدة، لما اشتد حصار الفرنج لها، وغلا السعر بها.

وكان سماء الملك حسين بن الأفضل عندما كان بالشام في السنة التي كسر الفرنج فيها قد سام ابن عمار تسليمها إليه، فامتنع وغلق الباب في وجهه، وأقام سماء الملك عليها مدة بالعساكر إلى أن نازلها الفرنج ورحلوه عنها إلى عسقلان، فلما سمع الأفضل أن أهل الثغر نادوا بشعاره سير إليهم أميرين ومقدم الأسطول، وأمره بأخذ المراكب التي على دمياط وعسقلان وصور معه إلى الثغر المذكور نصرة للمسلمين

فلما وصل إليه وجد الفرنج قد ملكوا الحوش وأمهلوا المسلمين، فأنفذ من كان بها وحمل في المراكب من أراد الخروج منهم بأهاليهم وأموالهم، وفيهم صالح بن علاق الطائي بعد هروبه من الأفضل، وحمل من دار ابن عمار ذخائره ومصاغه، وكان بقيمة كبيرة (١٩).

وحمل أخا ابن عمار المعروف بفخر الدولة وأهله إلى مصر، فأكرمهم الأفضل، واعتقل صالح بن علاق بخزانة البنود.

وفي العشرين من شوال كانت ريح سوداء من صلاة العصر إلى المغرب .

وفيها جدد حفر خليج القاهرة، فإن المراكب كانت لاتدخل فيه إلا بمشقة، وجعل حفره بأبقار البساتين التي عليه، فيحفر بأبقار كل بستان ما يحاذيه، فإن انتهى أمر البساتين عمل في البلاد كذلك، وأقيم له والٍ مفرد بجامكية، ومنع الناس أن يطرحوا فيه شيئا.

ولما تكاثرت الأموال عند ابن أبي الليث صاحب الديوان، رجية أن يتنجح على الأفضل بنهضته، وكان سبعمائة ألف دينار، خارجا عما أنفق في الرجال، فجعل في صناديق بمجلس الجلوس، فلما شاهد الأفضل المال قال: يا شيخ تفرحني بالمال وتريه أمير الجيوش، إن بلغني بئرا معطلة، أو أرضا بائرة أو بلدا خرابا، لأضربن رقبتك، فقال: وحق نعمتك لقد حاشى الله أيامك أن يكون فيها بلد خراب أو بئر معطلة، فتوسط القائد له بخلع، فقال: لا والله حتى أكشف عما ذكر.

وفيها وصل بغدوين إلى صيدا ونصب عليها البرج الخشب، فوصل الأسطول من مصر للدفع عنهم، وقاتلوا الفرنج وقهروا على مراكب الجنوية، فبلغهم أن عسكر دمشق خارج في نجدة صيدا، فرحل الأسطول عائدا إلى مصر.

وفي شعبان منها نزل الفرنج على طرابلس وقاتلوا أهلها من أول شعبان إلى حادى عشر ذي الحجة، ومقدمهم ريمند بن صنجيل[٢٠]، واسندوا أبراجهم الى السور، فضعفت نفوس المسلمين لتأخر أسطول مصر عنهم، فكان قد سار من مصر اليها بالميرة والنجدة فردته الريح لأمر قدره الله، فشد الفرنج في قتالهم وهجموا من الأبراج، فملكوها بالسيف في يوم الاثنين الحادي والعشرين من ذي الحجة، ونهبوا ما فيها، وأسروا رجالها، وسبوا نساءها وأطفالها، فحازوا من الأمتعة والذخائر ودفاتر دار العلم وما كان في خزائن أربابها

مالا يحد عـدده ولا يحصى فيذكـر، وسلم الـوالي لها في جماعة من جنـدها كانـوا قد طلبـوا الأمان قبـل ذلك، وعـوقب أهلهـا واستصفيت أمـوالهم واستثيرت ذخائرهم،ونزل بهم أشد العذاب.

وتقرر بين الفرنـج والجنويين الثلث من البلد ومـا نهب منه للجنونيين، والثلثان لريمند بن صنجيل، وأفردوا للملك بغدوين ما رضي به.

ثـم وصـل اسطول مصر ولم يكـن خـرج فيما تقـدم مثله كثـرة رجـال ومراكب وعدد وغـلال لحماية طرابلس فأرسى على صـور في اليوم الثامن من أخـذ طرابلـس، وقد فـات الأمر فيها، فـأقام مـدة، وفرقـت الغلة في جهـاتها، وتمسك أهـل صـوروصيدا، وبيروت بـه لضعفهـم عـن مقاومـة الفرنج، فلم تمكنه الاقامة، وعاد إلى مصر.

سنة ثلاث وخمسمائة:

فيهـا سار الفـرنـج نحـو بيروت، وعملوا عليهـا بـرجـا من الخشـب، وزحفـوا، فكسره أهـل بيروت. وقـدم الخبر بذلـك على الأفضـل، فجهـز تسعة عشر مركبا حربية، فوصلـت سالمة إلى بيروت، وقويت على مراكب الفـرنـج، وغنمـت، ودخلـت إلى بيروت بـالميرة والنجـدة، فقـوي أهلهـا بذلك، وبلغ بغـدوين الخبر، فاستنجد بالجنوية، فـأتاه(٢١) منهم أربعون مـركبا مشحـونـة بالمقـاتلة، فـزحـف على بيروت في البر والبحر، ونصـب عليها بـرجين، وقاتل أهلها في يـوم الجمعة الحادي والعشرين مـن شوال، فعظمت الحرب، وقتل مقدم الأسطول وكثير مـن المسلمين، ولم ير للفرنج فيما تقدم أشد مـن حرب هذا اليوم، فانخذل المسلمـون في البلد، وهجم الفـرنج مـن آخر النهـار فملكوه بـالسيف قهـرا، وخرج متـولي بيروت في أصحابه وحمل في الفرنـج، فقتل من كان معه، وغنم الفرنـج ما معهم من المال ونهبوا البلـد، وسبوا مـن فيه وأسروا، واستصفـوا الأموال والـذخائر،

فوصل عقب ذلك من مصر نجدة فيها ثلاثمائة فارس إلى الأردن تريد بيروت، فخرج عليها طائفة من الفرنج، فانهزموا إلى الجبال، فهلك منهم جماعة.

وفيها سار الأسطول من مصر إلى صور ليقيم بها، فاتفق وصول ابن كند ملك الفرنج في عدة مراكب لزيارة القدس والجهاد في المسلمين، فزار القدس، وسار هو وبغدوين إلى صيدا، فنازلاها بجمعهما وعملا عليها برجا من خشب، وزحفا عليها، فلم يتمكن الأسطول من الوصول إليها(٢٢)

سنة أربع وخمسمائة :

في ثالث ربيع الآخر اشتد الحصار على أهل صيدا ويئسوا من النجدة، فبعثوا قاضي البلد في عدة من شيوخها إلى بغدوين يطلبون الأمان، فأجابهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم، وإطلاق من أراد الخروج منها إلى دمشق، وحلف على ذلك، فخرج الوالي والزمام وجميع الأجناد والعسكرية وخلق كثير من الناس، وتوجهوا إلى دمشق، لعشر بقين من جمادى الآخرة. وكانت مدة الحصار سبعة وأربعين يوما.

وفيها خرج جماعة من التجار والمسافرين من تنيس ودمياط ومصر وأقلعوا في البحر، فأخذهم الفرنج وغنموا منهم ما يزيد على مائة ألف دينار، وعاقبوهم حتى اشتروا أنفسهم بما بقي لهم من الذخائر في دمشق وغيرها.

وفيها أغار بغدوين بعد عوده من صيدا على عسقلان، فراسله أميرها شمس الخلافة أسد حتى استقر الحال على مال يحمله إليه ويرحل عنه،

وقرر على أهل صورسبعة آلاف دينار تحمل إليه في مدة سنة وثلاثة أشهر، فقدم الخبر بذلك في شوال على الأفضل، فأنكر ذلك وكتمه عن كل أحد، وجهز عسكرا كثيفا إلى عسقلان، وقدم إليه عز الملك الأعز ليكون مكان شمس الخلافة، وندب معه مؤيد الملك رزيق، وأظهر أن هذا العسكر سار بدلا. فسار إلى قريب عسقلان،وبلغ ذلك شمس الخلافة فأظهر الخلاف على الأفضل وكتب إلى بغدوين يطلب منه أن يمده بالرجال ويعده بتسليم عسقلان وأن يعوضه عنها.

فبلغ ذلك الأفضل. فكتب إليه يطيب قلبه ويغالطه، وأقطعه عسقلان،وأقر عليه إقطاعه بمصر، وأزال الإعتراض عما له بمصر من خيل وتجارة وأثاث، فخاف شمس الخلافة على نفسه ولم يطمئن إلى أهل البلد، واستدعى جماعة من الأرمن وأقرهم عنده.

وفي يوم الأحد العشرين من شوال حدثت ريح حمراء بالقاهرة.

وفيها أمر أمير المؤمنين الآمر بأحكام الله أن ينعت جليسه أبو الفتح عبد الجبار بن اسماعيل، المعروف بابن عبد القوي بعماد الدولة زيادة على إخوته.

وفيها هبت بمصر وأعمالها في هذه الأيام ريح سوداء مظلمة، وطلع سحاب أسود أظلمت منه الدنيا حتى لم يبصر أحد يده، وسفت رمادا حتى ظن الناس أنها القيامة، ويئسوا من الحياة وأيقنوا بالبوار لهول ما عاينوه، ولم يزل ذلك من وقت العصر إلى غروب الشمس.ثم انجلى ذلك السواد وعاد إلى الصفرة والريح بحالها، ثم انجلت الصفرة، وظهرت الكواكب وقد خرج الناس من الأسواق والدور إلى الصحراء، ثم ركدت الريح وأقلع السحاب، فعاد الناس إلى منازلهم.

سنة خمس وخمسمائة:

في يوم الجمعة ثامن عشر ربيع الآخر نزل بغدوين على صور وبها عز الملك أنوشتكين الأفضلي، وبنى عليها أبرجة خشب، طول البرج سبعون ذراعا، يسع كل برج ألف رجل، وهو موضوع على شيء يسمى اسقلوس وهو فخذان ملقيان على الأرض، وفي كل برج من أسفله عشرون فرنجيا يصيح أحدهم بالفرنجية:« صند ماريا»، فيصيح الباقون كذلك، ويدفعونه بأجمعهم، فيسبح على ألواح عظيمة تجعل بين يديه، وكانت ستائر كل برج ومناجيقه كأنها بلد يزحف.

فخرج من أهل صور ألف رجل وحملوا على البرج وطرحوا فيه النار، فعلق بالخشب، فلم يتمكن الفرنج من إطفائه وهربوا منه، واحترق، فتناول المسلمون بالكلاليب ما قدروا عليه من سلاحهم، فوصل إليهم ثلاثمائة درع، وكان على هذا البرج كبشا من حديد زنة رأسه مائة وخمسون رطلا، فظفر به المسلمون، وكانت الريح على المسلمين ثم صارت معهم، وملأوا جرارا بالعذرة ورموها على الفرنج، فصاحوا وذلوا ورحلوا، فعاثوا، ثم عادوا وقد قطعوا النخل أنابيب ورموا بها في الخندق..

وسار طغتكين من دمشق لإعانة أهل صور، فنزل على يوم منهم بحولة بانياس، ونفذ إليهم مائتي غلام تركي عليهم جليل من الأتراك، فقاتل الفرنج وقتل منهم ألفا وخمسمائة، وأكثر النكاية فيهم، وأغار طغتكين على بلاد الفرنج، فأخذ لهم موضعا، فرجعوا عن صور بغير شيء. وخرج أهل صور إلى أصحاب طغتكين، فخلعوا عليهم وأعادوهم إليه في أحسن زي، وأخذ أهل صور في رم ماشعثه الفرنج في البلد.

وفيها حدث بمصر وباء مفرط، هلك به تقديرستين ألف نفس.

سنة ست وخمسمائة:

فيها حفر البحر المعروف ببحر أبي المنجا، فابتدىء في حفره في يوم الثلاثاء السادس من شعبان، واقام الحفر فيه سنتين، وكان أبو المنجا يهودياً وكان يشارف الاعمال الشرقية، فلما عرض على الافضل ما انفقه فيه استعظمه وقال: غرمنا هذا المال جميعه والاسم لأبي المنجا. فغير اسمه ودعي بالبحر الافضلي، فلم يتم ذلك ولا عرف إلا بأبي المنجا (٢٣).

وفيها أعلن شمس الخلافة أسد، والي عسقلان، بالخلاف، فعمد الى صاحب الترتيب والقاضي فأخرجهما على أنه يرسلهما الى الباب في خدمة عرضت له، وإلى العسكر الذي كان يخاف شوكته، فأوهمهم انه يسيرهم إلى بلاد العدو، فلما حصلوا خارج الثغر امرهم بالمسير الى باب سلطانهم، وكان قد سير قبل ذلك العسكر من الباب على جهة البدل. فلما علم أسد المذكور بوصولهم الى مدينة الفرما أنفذ إليهم يخيفهم ويشعرهم أن العدو قد تعداهم فامتنعوا من التوجه الى عسقلان.

فلما بلغ الأفضل ذلك عزم على أن يسير بنفسه اليه، ثم رأى ان اعمال الحيلة أنجع، فخادعه وأنفذ الكتب إليه ويصوب رأيه فيما فعله في صاحب الترتيب والبدل، ولم يغير مكاتبته عن حالها، ولاتعرض لاقطاعاته ورسومه واصحابه، وسير في الباطن من يستفسد الكنانية والرجال المركزة ويبذل لهم الأموال في أخذه، ولم يزل يدبر عليه حتى اقتنصت المنية مهجته، وذلك أن أهل بيروت أنكروا أمره، فوثب عليه طائفة وهو راكب، فجرحوه، وانهزم الى داره فتبعوه واجهزوا عليه، ونهبوا داره وماله، وتخطفوا بعض دور الشهود والعامة، فبادر صاحب السيارة الى البلد وملكه، وبعث برأس شمس الخلافة الى الأفضل، فسر بذلك وأحسن الى القادمين به.

وكان قدوم الرأس في يوم الأربعاء رابع المحرم، صحبة ثلاثة من الكنانية، فخلع عليهم، وطيف بالرأس، وزينت البلد سبعة أيام.

وفيه خلع على ولده مختار ولقب شمس الخلافة، وأنعم عليه بجميع مال أبيه،وسير بدله مؤيد الملك خطلخ، المعروف برزيق، واليا على الثغر.

وفيها وصل يانس الناسخ من الشام، فاستخدم في خزانة الكتب الأفضلية بعشرة دنانير في الشهر، وثلاث رزم كسوة في السنة، والهبات والرسوم.

وفيها كتب إلى عسقلان بمطالبة من نهب دار شمس الخلافة وماله بما أخذه، فقبض على جماعة وحملوا إلى مصر فاعتقلوا بها

وفيها تسلم نواب طغتكين صور من عز الملك أنوشتكين الأفضلي خوفا من بغدوين أن يأخذها، وقام بأمرها مسعود، فاستقرت بيد الأتراك وأقروا بها الدعوة المصرية والسكة على حالها، وكتب طغتكين إلى الأفضل بأن بغدوين قد جمع لينزل على صور، وأن أهلها استنجدوني، فبادرت لحمايتها، ومتى وصل من مصر أحد سلمتها إليه. فكتب يشكره على ما فعل. وتقدم بتجهيز الأسطول إلى صور بالغلة معونة لها.

سنة سبع وخمسمائة

في أولها خرج الأسطول من مصر بالغلات والرجال إلى صور،وعليه شرف الدولة بدر(٢٤) بن أبي الطيب الدمشقي متولي طرابلس عند أخذ الفرنج لها، فوصل إلى صور سالما، ورخصت بها الأسعار، واستقام أمرها، وأنفذ معه بخلع جليلة إلى ظهير الدين طغتكين وولده تاج الملوك وخواصه، ولمسعود متولي صور، ثم أقلع في آخر شهر ربيع الأول. فبعث بغدوين يطلب المهادنة من مسعود، فأجابه، وانعقد الأمر بينهما.

سنة تسع وخمسمائة:

في ذي القعدة قفز على الأفضل عند باب الزهومة(٢٥) من دكان صيرفي يعرف بالفار وسلم، فأخرجت الصدقات بسبب سلامته، وقتل الصيرفي وصلب على دكانه.

وورد الخبر بأن بغدوين ملك الفرنج وصل الفرما، فسير الراجل من العطوفية، وسير إلى والي الشرقية بأن يسير المركزية والمقطعين إليها، ويتقدم إلى العربان بأسرهم أن يكونوا في الطوالع ويطاردوا الفرنج ويشارفوهم بالليل قبل وصول العساكر، وأن يسير بنفسه، فاعتمد ذلك، ثم أمر بإخراج الخيام وتجهيز الأصحاب والحواشي، فوصلت العربان والعساكر فطاردوا الفرنج، فخاف بغدوين من تلاحق العساكر، فنهب الفرما وأخرجها وألقى فيها النيران، وهدم المساجد، وعزم على الرجوع، فأدركته المنية ومات، فأخفى أصحابه موته، وساروا وقد شقوا بطنه وحشوه ملحا، وشنت العساكر الإسلامية الغارات على بلاد العدو، وخيموا على ظاهر عسقلان ثم عادوا.

وكانت الكتب قد نفذت من الأفضل إلى الأمير ظهير الدين طغتكين، صاحب دمشق، يعتبه ويقول له: « لا في حق الإسلام ولا في حق الدولة التي ترغب في خدمتها والانحياز إليها تتوجه الفرنج بجملتها إلى الديار المصرية ولا يتبين لك فيها أثر ولا تتبعهم، ولو كان وراءهم مثل ما كان أمامهم ما عاد منهم أحد » . فلما وصل إليه الكتاب سار بعسكره إلى عسقلان، فتلقاه المقدمون، ونزل أعظم منزل، وحملت إليه الضيافات. وحمل إليه من مصر الخيام وعدة وافرة من الخيل والكسوات والبنود والأعلام، وسيف ذهب، ومنطقة ذهب، وطوق ذهب، وبدنة طميم، وخيمة كبيرة معلمة، ومرتبة ملوكية، وفرشها،وجميع آلاتها، وسائر ما تحتاج إليه من آلات الفضة، وجهز لشمس الخواص، وهو

مقدم كبير كان معه على عدة كثيرة من العسكر: خلعه مذهبه، ومنطقة ذهب، وسيف ذهب، وجهز برسم المتميزين من الواصلين: خلع مذهبة وحريرية، وسيوف مغموسة بالذهب، فتواصلت الغارات على بلاد العدو، وقتل منهم وأسر عدد كبير.

فلما دخل الشتاء وتفرق العسكر والعربان، استأذن ظهير الدين على الإنصراف، فأذن له، وسيرت إليه وإلى من معه الخلع ثانيا، فحصل لشمس الخواص خاصة في هذه السفرة ما مقداره عشرة آلاف دينار، وتسلم الأمير ظهير الدين الخيمة الكبيرة بفرشها وجميع آلاتها، وكان مقدار ما حصل له ولأصحابه ثلاثين ألف دينار، وذكر أن المنفق في هذه الحركة على ركاب بغدوين مائة ألف دينار.

ورعشت يد الأفضل، وصعب عليه إمساك القلم والعلامة على الكتب، فأقر أخاه أبا محمد جعفر المظفر في العلامة، وجعل له خمسمائة دينار في الشهر مضافا إلى رسمه، فعلم عنه.

واستهل شهر رمضان، فجرى الأمر في نيابة الأجل سماء الملك، ولد الأفضل، عنه في جلوسه بمحل الشباك، وقرر له على هذه النيابة في هذا الشهر خمسمائة دينار، وبدلة مذهبة، ورزمة كسوة فيها شقق حرير وغيرها، ولم يزل هذا الرسم مستقرا إلى أن أخذه عباس بن تميم في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة عند توليته حجبة بابه. والبذلة وحدها تساوي خمسمائة دينار.

وفيها استخدم ذخيرة الملك جعفر في ولاية القاهرة والحسبة، فظلم وعسف، وبنى مسجدا عرف بمسجد لا بالله (٢٦).

سنة عشر وخمسمائة:

سنة احدى عشرة وخمسمائة:

في ذي الحجة خرج أمر الآمر بأحكام الله بنفي بني عبد القوي، فنفوا إلى الأندلس بأهاليهم.

وفيها وصل بغدوين إلى الفرما وأحرق جامعها وأبواب المدينة ومساجدها، وقتل بها رجلا مقعدا وابنة له ذبحها على صدره، ورحل وهو مثخن مرضا، فمات قبل العريش، فشق بطنه ورمي ما فيه هناك، فهو يرجم إلى اليوم، ويعرف مكانه بسبخة بردويل ودفنت رمته بقمامة من القدس.

وقام من بعده بملك القدس القمص صاحب الرها، بعهده إليه.

ونزل الفرنج حوران، وملكوا من أعمال حلب بزاعة وخرتبرت، وملكوا مدينة صور.

وفيها خرج محمد بن تومرت من مصر في زي الفقهاء ومضى إلى بجاية

سنة اثنتي عشرة وخمسمائة:

فيها مات الأمير نور الدولة أبو شجاع فاتك، والد القائد أبي عبد الله بن فاتك، فأخرج له الأفضل من ثيابه بذلة حريرية وقارورة كافور وشققا مزيدي دبيقي، ونصافي، وطيبا وبخورا وشمعا، وحمل له من القصر أضعاف ذلك، وخرج الأفضل والأمراء، وجمع حاشية القصر، إلى الإيوان، فخرج الخليفة وصلى عليه، ثم أخرج فدفن. وتردد الناس إلى التربة، وفرقت الصدقات إلى تمام الشهر.

وكان بيد نور الدين: زمر الضاحكية، والفراشين، وصبيان الركاب،

والسلاح الخاص بجار ثقيل، ورسوم كثيرة، وهؤلاء الضاحكية(كانوا) يعرفون بهذه الرسوم قديما عند وصولهم مع المعزإلى مصر، وهم يلبسون المناديل ويرخون العذب، ويلبسون الثياب بالأكمام الواسعة، وفي أرجلهم الصاجات، وفي الأعياد يشدون أوساطهم بالعراضي الدبيقي، ولا يتقدمهم أحد إلى الخليفة على ما جرت به عادتهم في المغرب .

وفيها قفز على الأفضل ثانيا، وخرج عليه ثلاثة نفر بالسكاكين، فقتلوا، وعاد سالما، فاتهم أولاده، وصرح بالقول فيهم، وأخذ دوابهم، وأبعد حواشيهم، ومنعهم من التصرف، وبالغ في الاحتزاز والتحفظ.

وفيها وردت التجار من عيذاب ذاكرين أنه خرج عليهم في مراكب شنها قاسم بن أبي هاشم، صاحب مكة، فقطعت عليهم الطريق وأخذ جميع ما كان معهم، فغضب الأفضل وقال: صاحب مكة يأخذ تجارا من بلادي، أنا أسير إليه بنفسي بأسطول أوله عيذاب وآخره جدة، ثم تقرر الحال على مكاتبة الأشراف بمكة وإعلامهم ما فعله أمير مكة، وأقسم فيه أنه لا يصل إلى مكة من أعمال الدولة تاجر ولا حاج إلى أن يقوم بجميع ما أخذه من أموال التجار، وكتب إلى والي قوص بأن يسير بنفسه أو من يقوم مقامه، إلى عيذاب، ومهما وصل من جدة من الجلاب لا يمكن أحدا من الركوب فيها، وأن يتشوف ما يدخل عيذاب من الشواني والحراريق، فمهما كان يحتاج إلى إصلاح ومرمة ينجز الأمر فيه، ويشعر أهل البلاد بوصول الرجال والأموال لغزو البلاد الحجازية، وتقدم إلى المستخدمين بصناعة مصر بتقديم خمسة حراريق وتكميلها ليسيروا إلى الحجاز

فلما وردت المكاتبة على الأشراف بمكة ولم يصل إليها أحد اشتد الأمر

عندهم وتحرك السعر، فبعثوا رسولا من أميرهم، فلما وصل ساحل مصر لم يؤذن له ولا أجري عليه ضيافة وقيل له: ما يقرأ لك الكتاب ولا يسمع منك خطاب دون إعادة المأخوذ من التجار إليهم، وشاهد مع ذلك الجد والاهتمام بأمر الأساطيل وتجهيز العساكر إلى صاحبه، فالتزم بإحضار جميع أموال التجار، وسأل التوقف قبل الإسراع بما عول عليه من قصد صاحبه، وأجل لعوده أجلاً قريبا، فأجيب إلى ذلك، وسار فلم ينقض الأجل حتى عاد وصحبته جميع ما أخذ من التجار من البضائع والأموال، فحملت إلى الجامع العتيق بمصر بمحضر من الرعايا، وهم يعلنون بالشكر والدعاء، واحتاط متولي الحكم عليه إلى أن تحضر جماعة التجار، ويجري الأمر على ما توجبه الشريعة. وخلع على الرسول وأحسن إليه ووصل.

ومرض الأفضل بحمى حادة ثم عوفي، فدفع للطبيب ثلاثمائة دينار (٢٧).

سنة خمس عشرة وخمسمائة:

فيها قتل الأفضل بن أمير الجيوش يوم الأحد سلخ شهر رمضان وعمره سبع وخمسون سنة، لأن مولده بعكا سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، وكان سبب ذلك أنه لما كان ليلة عيد الفطر جهز ما جرت العادة بتجهيزه من الدواب والآلات لركوب الخليفة، وجلس بين يديه إلى أن عرضت الطبول على العادة كل سنة، والدواب والسلاح، ثم عاد وأدى ما يجب من سلام الخليفة فتقدم إلى القائد أبي عبدالله بن فاتك بأن يأمر صاحب الباب أن يصف العساكر إلى صوب باب الخوخة(٢٨) وركب الأفضل من مكانه والناس على طبقاتهم، وخرج من باب الخوخة قاصدا دار الذهب (٢٩)، فلما حصل بها وقع التعجب من الناس في نزوله ليلة الموسم، ولم يعلم أحدا ما قصد، وكان قصده أن يكمل تعليق المجلس

الذي يجلس فيه، فصلى بدار الذهب الظهر، فلما قرب العصر ركب منها وقد انصرف أكثر المستخدمين ظنا منهم أنه يبيت فيها، فسار إلى الزهري فإذا الأمراء والأجناد والمستخدمون والرهجية قد اتجهوا لخدمته، وكان قد ضجر وتغير خلقه ولاسيما في الصيام. فلما رأى اجتماع الناس وكثرتهم أبعدهم، فتقدموا ووقفوا عند باب الساحل، فأنفذ أيضا يخرج من أبعدهم، وبقي في عدة يسيرة، وأبعد صبيان السلاح من ورائه، فوثب عليه من دكان دقاق بالملاحين أربعة نفر متتابعين كلما اشتغل من حوله بواحد خرج غيره، فرمي من الفرس إلى الأرض، وضربوه ثمان ضربات. وكان القائد (٣٠) بعيدا منه لأخذ رقاع الناس، وسماع تظلمهم، وتفريق الصدقات على الفقراء بالطريق، فلما سمع الضوضاء أسرع إليه ورمى نفسه إلى الأرض عليه، فوجده قد قضى نحبه، وحمل على أيدي مقدمي ركابه والقائد راجل، وهم يبشرون الناس بالسلامة، وقتل من الذين خرجوا عليه ثلاثة وقطعوا وأحرقوا، وسلم الرابع، وكان اسمه سالما، ولم يعلم به إلا لما ظفر به مع غيره بعد مدة.

ولم يزل الأفضل محمولا ولا يمكن أحد من الوصول إليه إلى أن دخل به على مرتبته التي كان يجلس عليها أو يمطى. وقال (القائد): للخليفة أدركني وتسلم ملكك لئلا أغلب عليه، وصار أي من لقيه يهنئه بسلامة السلطان ويوهم أهله أن الطبيب عنده، ويأمرهم بتهيئة الفراريج والفواكه، وعاد إلى قاعة الجلوس فوجدها قد غصت بالناس، فرد عليهم السلام وهنأهم، وأظهر قوة عزم، ثم عاد إلى القاعة الكبيرة وقد حضر إليه متولي المائدة الأفضلية واستأذنه على السماط المختص بالعيد فقال له: اذبح ووسع، فالسلطان بكل نعمة وهو الذي يجلس على السماط في غد، ومع ذلك فكان في قلق وخوف شديد من أن يبلغ أولاد الأفضل فيجري منهم مالا يستدرك وتنهب الدار.

فلما أصبح الصباح وركب الخليفة ودخل إلى الدهليز الذي كان

يركب منه الأفضل ومعه الأستاذون المحنكون قال القائد أبو عبد الله للخليفة: عن إذن مولانا أفتح الباب، وكان قد منع من الدخول إلى الدار، فقال الخليفة: نعم ففتح على الأفضل وقال له القائد: الله يطيل عمر أمير المؤمنين ويفسح في مدته ويورثه أعمار مماليكه، هذا وزيره قد صار إلى الله تعالى، وهذا ملكه يتسلمه، ثم ضربت للوقت المقرمة (٣٦) على الأفضل، وأمر الخليفة بإحضار من بالقاعة من الأمراء والأجناد، فدخل الناس على غير طبقاتهم إلى أن مثلوا بين يدي الخليفة وهو قاعد على الحصيرعند المقرمة، فقال الخليفةللأمراء: هذا وزيري قد صار إلى الله تعالى، ومنكم إلي ومني إليكم، وقد كان القائد واسطته إليكم، وهو اليوم واسطتي إليكم. فشكر الحاضرون ذلك،هذا والقائد وولده مشدود الأوساط بالمناطق، وصاحب الباب على ما كانوا عليه. وتقدم إلي الشيخ أبي الحسن بن أبي أسامة أن يكتب إلى الأعمال بذلك، وأمر الأمراء بالانصراف.

ثم قال القائد: يا مولانا، الأموال والجواهر على اختلافها في الخزائن الكبار عنده، وهي مقفلة ومفاتيحها عندي، وختم عليها وهي في بيت المال المصون، وكذلك المفضض التي عند المستخدمين برسم الاستعمال والميناء الذهب المرصعة والتي بغير ترصيع، والبلور التي برسم استعماله، جميع ذلك مثبت عند متولي دفتر المجلس إلا خزانة الكسوة التي برسم ملبوسه ما عندي منها خبر،فأمر من يدخل ويختم عليها، فأمر متولي الخزائن الخاص، وكان سيف الأستاذين، ومتولي بيت المال ومتولي الدفتر، وهم كبار الأستاذين المحنكين بأن يدخلوا ويجتمعوا، ولا يعترض غيرها لا لولده ولا لجهته ولا لبناته ولا لأحد من عياله.

فتوجهوا وقرعوا الباب، فلما شاهدهم النساء تحققوا الوفاة، وقا م الصراخ من جميع جوانب المواضع، وكانت ساعة أزعجت كل من بمصر والجيزة والجزيرة، ثم أسكتوا. وأنفذت الرسل لختم الخزائن التي بمصر.

فبينما هم على ذلك في الليل إذ وصل إلى الخليفةرقعتان على يد أستاذ من القاهرة، من رجلين من جملة الحاشية، يذكران فيها أن أولاد الأفضل قد جمعوا عدة وشنعت حاشيتهم أن في بكرة هذه الليلة يستنصرون بالبساطية والأرمن ويثورون في طلب الوزارة لأخيهم الأكبر، فامتعض الخليفة لذلك، وهم بالارسا ل إليهم وقتلهم، ثم تقرر الأمر على أن يودعوا الخزانة [٣٢]من غير إهانة ولا قيود، فتوجه إليهم، فإذا جميع حاشيتهم وغيرها عندهم، والخيل قد شدت، فأودعوا الخزانة.

فلما أصبح الصباح كان قد حمل من القصر في الليل طيافير [٣٣] فيها عدة موائد للفطر في يوم العيد، وحمل برسم فطر الخليفة الصواني الذهب، وعليها اللفائف الشرب المذهبة، وكان قد هيىء للخليفة من الليل موضع للمبيت بحيث يبعد عن الأفضل، وعين من وقع الاختيار عليه لقراءة القرآن عند الأفضل.

فلما كان السحر من عيد الفطر جيء بين يدي الخليفة بما أحضر من قصوره في مواعينه الذهب المرصعة، وعليها المناديل المذهبة من التمر المحشووالجوارشينات بأنواع الطيب وغير ذلك،فاستدعى الخليفة القائد وأمره بالمضي إلى باب الحرم لإحضار الأجل المرتضى ابن الأفضل، فمضى لذلك، فأبت أمه من تمكينهم منه، فما زال حتى أسلمته إليه بعد جهد، فأتى به الخليفة فسلم به، وضمه الخليفة إليه وقبله بين عينيه، وأجلسه عن يمينه والقائد عن شماله، وبقية الخواص على مراتبهم.

ثم كبر مؤذنو القصر، فسمى الخليفة وأخذ تمرة وأكل بعضها وناولها للقائد، ثم ناول الثانية لولد الأفضل،فقام كل منهما وقبل الأرض ولم يجلس. وتقدم كل من الحاضرين فأخذ من يد الخليفة من التمر ووقف، فاستدعى القائد الفراش الذي معه الصينيتان النحاس، وأمر فراشي الأسمطة بنقل ما في الأواني التي بين يدي الخليفة في الصواني لتفرق في

الأمراء الـذين بالقـاعة والدهـاليز، فنقلت إليهـا وحملت إلى المقرمـة التي الأفضل وراءها وختم المقرئون.

ثم أظهـر الخليفة الحزن على فقـد وزيره، فتلثـم وتلثم جميـع المحنكين والحاشية، وجلـس الخليفة على المخـدة عند المقرمـة، وأمر حسـام الملك، حاجب البـاب، بإحضار القاضي والـداعي والأمراء، فدخـل الناس على طبقاتهم. فلما رأوا زي الخليفة اشتـد البكاء والعويل، وخرق كـل أحد ما عليه، ورميـت المناديل — يعني العمائم - إلى الأرض، وبكـى الخليفة وحاشيته ساعة، ثم سأل القـائد الخليفة أن يفطر على تمرة بحيث يشاهده جميع من حضر، ففعل ذلك.

ثم أشـار الخليفة إلى القائد أن يكلـم الناس عنـه: فقال: أمير المؤمنين يرد السـلام عليكم،وقـد شاهـدتم فعلـه وكونـه لم يشغله مصـابه بـوزيره ومـدبـر دولتـه ودولـة آبـائه عـن قضـاء فـرض هـذا اليـوم، وقـد أفطـر بمشاهدتكم، وأمـركم بالإفطار، فمسح الخليفة بيـده على الصواني، وتقدم القائد إلى الخليفة وصـار يناوله من الصـواني بيده، فأول ما بـدأ بالقاضي ثم الداعي، وتزاحم الناس للأكل

ورفعت الصواني، فـأخذ القائد بيد الداعـي وقربه من الخليفـة، فناوله الخليفـة الخطبـة، وكـانـت على يساره ملفـوفـة في منـديـل شرب بيـاض مذهـب، فقبلها الـداعي وجعلها على رأسـه، وضمها إلى صـدره، وتقدم القـائد لحسـام الملك بـأن يـأخـذ الأمراء جميعهـم ويطلعـون إلى المصلى بـالقاهـرة لقضاء الصـلاة، فتوجهـوا في زي الحزن والمؤذنون بين أيـديهم، فصلى الداعـي بالنـاس، ثم صعد المنبر فـوقف على الدرجـة الثالثـة منه، وخطب، وكانت الخطبة مبيتة فيها الدعاء للأفضل والترحم عليه.

وعنـدمـا توجـه النـاس إلى المصلى أمـر ولـد الأفضل بـالمضي إلى إمـه وإخوته وجهات أبيه ليرد عليهم السلام من أمير المؤمنين ويفطرهم.

وخلا الخليفة بالقائد وأمره بإخراج جميع الجواهر، فقام إلى خزانة كانت عند بيت نوم الأفضل، فوجدها مختمه، ففتحها وأخرج قمطرين عليهما حلية ذهب مملوءين جواهر ما بين عقود مفصلة بياقوت وزمرد وسبح، وقمطرا فيه إحدى عشرة شرابة طوال كل شرابة شبران بجواهر ما تقع عليها قيمة، وصناديق فضة مملوءة مصاغات ما بين عصائب وتيجان ذهب مرصعة بجواهر نفيسة، ففتحت كلها، فشاهد الخليفة منها ما لايوصف، فسر بذلك سرورا كبيرا، وشكر القائد وقال:« والله إنك المأمون حقا، مالك في هذا النعت شريك» . فقبل الأرض ويديه.

ولهذا النعت قضية، وذلك أنه لما كان في الأيام المستنصرية، وعمر القائد يومئذ اثنتا عشرة سنة، وكان من جملة خاصة المستنصر يرسله إلى بيت المال وخزانة الصاغة في مهماته، فيجد منه النهضة والأمانة، فيقول هذا المأمون دون الجماعة، ودرجت السنون، فذكرها الخليفة الآمر في ذلك الوقت فقال له: أنت المأمون على الحقيقة،لأجل ذلك.

ثم عاد حسام الملك أفتكين صاحب الباب، والداعي وجميع الأمراء من المصلى، ومثلوا بين يدي الخليفة، ووقع حينئذ الاهتمام بتجهيز الأفضل، وتقدم إلى زمام القصور بإخراج ما قد مازجه عرق الأئمة، وتقدم إلى ريحان متولي بيت المال بإخراج ما يجب إخراجه برسم المأتم، فمضيا، وتقدم إلى حسام الملك بإعلام الأمراء والأجناد والشهود والقضاة والمتصدرين والمقربين وبني الجوهري الوعاظ وغيرهم لحضور الجنازة وتلاوة القرآن. فعاد زمام القصور ومتولي بيت المال ومعهما عشرون صينية ملفوفة في عراضي دبيقي بياض مملوءة صندلا مطحونا ، ومسكا وكافورا وحنوطا وقطنا، وفي صدر الآخر منديل ديباج فيه ما رسم بإحضاره من ملابس الخلفاء وطيالسهم، ووصلت أيضا الموائد على رؤوس الفراشين، وهي مائة شدة،صحبة متولي المائدة الآمرية، فمد السماط بين يدي الخليفة، ومد سماطان، أحدهما بالقاعة وهو برسم الأمراء، والآخر برسم

القاضي والداعي والشهود والمقربين والوعاظ والمؤمنين، وحمل إلى الجهات الأفضليات شيء كثير.

فلما انقضى الأكل عاد الجميع بالقاعة، وذكر أنه ختم على الأفضل في هاتين الليلتين واليوم نيف وخمسون ختمة، فلما انقضى معظم الليلة، الثاني من شوال، تقدم الخليفة بإحضار داعي الدعاة، ولي الدولة ابن عبد الحقيق، وأمره بغسل الأفضل على ما يقتضيه مذهبه، وكفن بما حضر من القصر، وأخرج للداعي بذلتان مكملتان، مذهبة وحرير، عوضا عما كان على الأفضل من ثياب الدم، فإنها لم تنزع عنه، وعند كمال غسله دفع للداعي ألف دينار.

فلما كان في الثالثة من نهار يوم الثلاثاء ثاني شوال خرج التابوت بالجمع الذي لايحصى، والناس بأجمعهم رجالة، وليس وراءهم راكب إلا الخليفة بمفرده وهو ملثم، فلما خرج التابوت من بلد مصر أمر الخليفة بركوب القائد والمرتضى ولد الأفضل، وذكر أن الشيخ أبا الحسن بن أبي أسامة ركب حمارا، فلما وصلت الجنازة إلى باب زويلة ترجل القائد والمرتضى ومشيا، وبعث الخليفة خواصه إلى أخويه: أبي الفضل جعفر وأبي القاسم عبد الصمد، وأمرهما إذا وصل التابوت إلى باب الزهومة: يخرجا بغير مناديل، بعمائم صغار وطاليس، فإذا قضيا ما يجب من حق سلام الخليفة يسلما على القائد أبي عبد الله بمثل ما كانا يسلمان على الأفضل، ويمشيان معه وراء التابوت. فاعتمدا ذلك فاستعظم الناس هذه الحالة والمكارمة، ولم يزالا مع الناس وراء التابوت إلى أن دخل من باب العيد(٢٤).

ورد على ورقة مفردة ما يلي:

....العنبر ومائة مسمار من ذهب زنة كل مسمار مائتا مثقال على كل

مسمار عمامة لون، وخلف عشرة صناديق فيها من نفيس الجوهر ومن القضيب الزمرد الذي قصبه لايوجد مثلها، وخلف خمسمائة صندوق من دق تنيس ودمياط وثمان مائة من الزبادي الصيني والبلور والمحكم وستمائة حمل وثلاثة آلاف ملعقة ذهبا، وعشرة آلاف زبدية فضية كبار وصغار، واربع قدور ذهب وزن كل قدر مائة رطل بالمصري، وستة آلاف خريطة ديباج، وثلاثة آلاف وسبعمائة خاتم ذهب بفصوص ياقوت وزمرد والف خريطة مملوءة دراهم— خارجا عن الادب — في كل خريطة عشرة آلاف درهم. ومن الخدم والرقيق والخيل والبغال والجمال والسروج المحلاة، ومن حلي النساء ما لايحصى عدده الا الله تعالى. واقام الآمر بدار الملك طوال شهر ايلول يحمل في كل يوم على مائتي جمل الى القاهرة من دار الملك دفعتين في النهار ودفعة في الليل طول الشهر، مائتي جمل كل يوم. وخلف الف حسكة فضة وثلاثة آلاف نرجسة فضة، والف صدر ذهب والفي صدر فضة منقوشة، وثلاثمائة ثور ذهب واربعة آلاف ثور فضة والف بوق كبير من ذهب، وخلف من المراكب، يعني السروج، المرصعة مائة مركب، ومن الآلات والبسط الارمنية والاندلسية والطبرستانية ما ملىء به خزائن الايوان، وداخل قصر الزمرد من الجاموس وبقر الخيس والاغنام ما يباع لبنه في كل سنة بضمان ابي الحسين بن يزيد بثلاثين الف دينار، وفي حاصل الاهراء والمناخات ما لايحصى كثرة ولايعرف مقداره.

وورد ايضا على طرف الورقة:

وعند قوله والافضل هو الذي انشأ بستان البعل ما مثاله بخط المؤلف وعمل الافضل في داره... واقترح على الشعراء النظم فيها وانشد لنفسه فيها:

نــزهـــة عين الغــاب والنــاظــر

ومجلــس للملــك النـــــــاصر

كــأنمــا الأفضــل فــي أفقهـــا

شمــس الضحــى فــي الفلــك الــدائر

ونزع السعـر في أيامـه بمصر، فأمر مشـارف الاهراء بفتح المخـازن وبيع القمح بثلاثين دينارا لكل مائة اردب. فقـال يا سيدي: القمح كل اردب بدينـار تبيع انت بثلاثين دينـارا المائة. فانتهره وقـال : يا شيخ، تـريد ان يسمع عن ايـامي شدة تعـرف بشـدة ابن عرس— وكـان هذا المشـارف يعـرف بابن عـرس— بع كما امرتك فعنـدي من البـذر ما يقـوم بالنـاس عشر سنين لاسيما القمح،فـامتثـل ذلك وبـاع بثـلاثين دينـارا كل مـائة اردب، وكان النـاس يشترون ويبيعون على باب المخزن كل اردب بـدينار، فحصل لهم من هـذا المتجـر مـال عظيم وحسنت احـوالهم، وكثـرت الاموال في ايدي الرعية مدة ايـامه. وكان لايولي عملا من الاعمال الا لمن هو كـفـء له، ويضع الاشيـاء في مواضعهـا، مع كثرة مـوافاتـه بما يعمله الولاة..واكثر رفاقـة للرعية وتبسطه للعـدل، فكان الولاة في ايامـه لاتمد يد واحد منهم الى مظلمـة خوفا منه فـانه كان اذا بلغـه عن احد منهم ميل عن سيرة العـدل نكل به، فـاستقامت لـذلك الامور وحسنت الاحـوال، ومات وامور الدولـة قد اسندها الى عدة من رؤساء اصحابـه، فاسند امور

العساكـر جميعا وامـارة الباب الى الامير حسـام الديـن افتكين، ورد امور الـرعية وشكـاواهم وظلامـاتهم والاخـذ والعطاء والمجلس الى القـائد ابي عبـد اللـه ابن فـاتك، ورد امـر الـدواوين والامـوال والعمال الى ابن ابي الليـث، ورد امـور الأجـر والصنـاعـات الى ابن ابي البيـان، ورد ديـوان

المكاتبات والنظر في الاحكام والاعمال وما يخص الشريعة الى الشيخ ابي الحسن بن ابي عثمان..

فلما صار التابوت في وسط الإيوان هم الخليفة بأن يترجل، فسارع إليه القائد والمرتضى، وصاح الناس بأجمعهم: العفو يا أمير المؤمنين. عدة مرار، فترجل الخليفة على الكرسي، وصلى عليه، ورفع التابوت فمشى

obeikandl.com

وراءه، وركب الخليفة الفرس على ما كان عليه، ونزل التربة ظاهر باب النصر ووقف على شفير القبر إلى أن حضر التابوت

واستفتح ابن القارح المغربي وقرأ: « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم» (٣٥) الآية. فوقعت من الناس موقعا عظيما، وبكوا، وبكى الخليفة، وهم بنزول القبر ليلحده بيده، ثم أمر الداعي فنزل وألحده والخليفة قائم إلى أن كملت مواراته، ثم ركب من التربة والناس بأجمعهم بين يديه إلى قصره.

وأخرج من قاعة الفضة بالقصر ثلاثون حسكة، وثلاثون بخورا مكملة، وخمسون مثقال ند وعود، وشمع كثير، فأشعلت الشموع إلى أن صلى الصبح وأطلق البخور، واستقر جلوس الناس، فصلى القاضي بالناس، وفتح باب مجلس الأفضل المعلق بالستور القرقوبي الذي لم يكن حظه منه إلا جوازه عليه قتيلا، ورفعت الستور، وجلس الخليفة على المخاد الطبري التي عملت في وسطه، وسلم الناس على منازلهم، وتلي القرآن العظيم وتقدمت الشعراء في رثائه إلى أن استحق الختم فختم، ثم خرج القائد والأمراء إلى التربة فكان بها مثل ما كان بالدار من الآلات والبخور. وعمل في اليوم الثاني كذلك .

وكان عمر الأفضل يوم مات سبعا وخمسين سنة، ومدة ولايته ثمانية وعشرون عاما.

ويقال إن الآمر وافق المأمون على قتله، فرتب له من قتله.

ثم أمر أن يكتب سجل بتعزية الكافة في الأفضل والثناء على خصائصه ومساعيه، وإشعارهم بصرف العناية إليهم ومد رواق العدل عليهم، وتفريقه على نسخ تتلى على رؤوس الأشهاد وبسائر البلاد. فكتب ما مثاله:

« هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبي علي، الإمام الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين بما رآه وأمر به من تلاوة على كافة من بمدينة مصر - حرسها الله تعالى - من الأشراف والأمراء ورجال العساكر المؤيدة على اختلاف طبقاتهم، فارسهم ومترجلهم وراجلهم، والقضاة والشهود والأماثل، وجميع الرعايا، بأنكم قد علمتم ما أحدثته الأيام بتصاريفها، وجرت به الأقدار على عادتها ومألوفها من فقد السيد الأجل الأفضل ونعوته - قدس الله روحه، ونور ضريحه، وحشره مع مواليه الطاهرين الذين جعلهم أعلام الهدى ومصابيحه، الذي كان عماد دولة أمير المؤمنين وحمال أثقالها، وعلى يديه وحسن سيرته اعتمادها ومعولها، وتخطي الحمام إليه، واخترام المنية إياه وتسلطها عليه، وما تدارك الله الدولة به من حفظ نظامها، واستتار أمورها بعد هذا الفادح العظيم والتئامها، وما رآه أمير المؤمنين من تهذيبه للأمور بنظره السعيد، ومباشرته إياها بعزمه السديد، واهتمامه بمصالح الكافة، وإسباغ ظل الإحسان عليهم والرأفة، حتى أصبحت الدولة الفاطمية بذلك ظلية المناكب، منيرة الكواكب، محروسة الأرجاء والجوانب.

ولما كانت همة أمير المؤمنين مصروفة إلى الاهتمام بكم، والنظر في مصالحكم، والإحسان إليكم، وتأمين سربكم، وإعذاب شربكم، ومد رواق العدل عليكم، وإنصاف مظلومكم من ظالمكم، وضعيفكم من قويكم، ومشروفكم من شريفكم، وكف عوادي المضار بأسرها عنكم، وتمكينكم من التصرف في أديانكم على ما يعتقده كل منكم، جارين على رسمكم وعادتكم، من غير اعتراض عليكم - رأى ما خرج به عالي أمره من كتب هذا السجل وتلاوته على جميعكم، لتثقوا به، وتسكنوا إليه، وتتحققوا جميل رأي أمير المؤمنين فيكم، وأنه لا يشغله عن مصالح الكافة شاغل، وأن باب رحمته مفتوح لمن قصده، وإحسانه عميم شامل، وله إلى تأمل أحوال الصغير والكبير منكم عين ناظرة، وفي إحسان

سياستكم عزيمة حاضرة وأفعال ظاهرة، والله تعالى يمده بحسن الإرشاد، ويبلغه المراد في مصالح العباد والبلاد، بمنه وعونه.

فاعلموا هذا من أمير المؤمنين ورسمه، وانتهوا إلى موجبه وحكمه وليعتمد الأمير متولي المعونة بمصر تلاوته على منبر الجامع العتيق بمصر ليعيه كل من سمعه، ويصل علم مضمونه إلى من لم يحضر قراءته، ليتحققوا ما ذكر فيه وأودعه،وليحمل الناس على ما أمر به فيه، وليحذر من مجاوزته وتعديه، وليقرأ بالجامع المذكور ليقع التصفح والتأمل في اليوم وما يليه، إن شاء الله تعالى».

ثم أمر الخليفة بإنشاء منشور يتلى، مضمونه:

« خرج أمر أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين، بإنشاء هذا المنشور بأن يعتمد في ديوان التحقيق والمجلس وسائر دواوين الدولة، قاصيها ودانيها، قريبها ونائيها، إمضاء ما كان السيد الأجل الأفضل قرره، وخرجت به توقيعاته الثابتة عليها علامته في الأحكام والأموال بتصاريف الأحوال، إذ أمر أمير المؤمنين راض بأفعاله، محقق لأقواله، حامد لمقاصده، ممض لأحكامه، عارف بسداد رأيه في نقضه وإبرامه، على أوضاعها وأحكامها، وتقريراته في كل منها، فليحذر كافة الأمراء وسائر الولاة ــ نصرهم الله وأظفرهم ـ وجميع النواب والمستخدمين، والكتاب والمتصرفين بجميع الأعمال من تأول فيه، أو تعقب فغير شيئا من أحكامها على ما قرره وأمر به. وليخلد هذا المنشور في ديوان التحقيق والمجلس بعد ثبوته في جميع الدواوين، وليصدر الإعلان به إلى كافة الجهات بهذا المرسوم، تثبيتا لهذا الأمر المذكور المحتوم، إن شاء الله تعالى» .

وفي السادس والعشرين من شوال عمل تمام الشهر على تربة

الأفضل، كما عملت الصبحة والثالث. فلما انقضى الختم وانصرف الناس ركب الخليفة بموكبه، ونزل إلى التربة، وترحم عليه وعاد، ذكر هذا جمال الملك موسى بن المأمون البطائحي في تاريخه.

قال ابن ميسر: وأقام الخليفة في دور الأفضل، وفي دار الملك بمصر ودار الوزارة بالقاهرة وغيرهما مدة أربعين يوما، والكتاب بين يديه يكتبون ما ينقل إلى القصور، فوجد له من الذخائر النفيسة ما لا يحصى.

فمما وجد له ستة آلاف ألف دينار عينا، وفي بيت الخاصة ثلاثة آلاف ألف دينار وفي البيت البراني ثلاثة آلاف ألف ومائتا ألف وخمسون ألف دينار، ومائتين وخمسين إردبا دراهم ورقا، وثلاثين راحلة من الذهب العراقي المغزول برسم الرقم، وعشرة بيوت في كل بيت عشرة مسامير ذهب كل مسمار وزنه مائتا مثقال عليها العمائم المختلفة الألوان، وتسعمائة ثوب ديباج ملونة، وخمسمائة صندوق من دق دمياط وتنيس برسم كسوة بدنه، ولعبة من عنبر على قدر جسده برسم ما يعمل عليها من ثيابه لتكتسب الرائحة، ومن الطيب والآلات ما لايحصى عدده، ومن الأبقار والجاموس والأغنام والجمال ما بلغ ضمان ألبانه ونتاجه في سنة نحو أربعين ألف دينار، ودواية يكتب منها مرصعة بالجواهر،قوم جوهرها باثني عشرة ألف دينار، وخمسمائة ألف مجلدة من الكتب العلمية.

قال: وأخذ الآمر في نقل ما بدار الأفضل إلى القصر،وهو يرتب ما يحمل بنفسه، هو وأصحابه، واستمر ذلك مدة شهرين وأيام، والأموال تحمل على بغال وجمال إلى القصر، والآمر يطلع إلى القصر ويعود كل غداة ويقيم حتى يرتفع النهار ويرتب ما يفعل.

وذكر متولي الخزانة بالقصر أن مما وجد في دار الأفضل ستة آلاف ألف وأربعمائة ألف دينار، وورق قيمته مائتا ألف وعشرون ألف دينار،

وسبعمائة طوق ما بين ذهب وفضة، ومن الأسطال والصحاف والشربات والأباريق والقدور والزبادي الذهب والفضة المختلفة الأجناس ما لا يحصى كثرة، ومن براني الصيني الكبار المملوءة بالجواهر التي بعضها منظوم كالسبح وبعضها منثور شيء كثير.

وكان الأفضل في أوقات الشرب يصف في مجلسه صواني الذهب، وبينها ا لبراني المملوءة بالجواهر، فإذا أحب فرغت البرنية في الصينية فتكون ملئها.

ووجد له من أصناف الديباج وما يجري مجراه من عتابي ونحوه تسعون ألف ثوب وثلاثة خزائن كبار مملوءة صناديق كلها دبيقي وشرب عمل تنيس ودمياط، على كل صندوق شرح ما فيه وجنسه. وخزانة الطيب مملوءة أسفاطا، فيها العود وغيره، مكتوب على كل سفط وزنه وجنسه، وبراني بها المسك والكافور وشيء كثير من العنبر، ووجد مجلس يجلس فيه للشرب فيه ثمان جوار متقابلات، أربع منهن بيض من كافور وأربع سود من عنبر، قيام في المجلس، عليهن أفخر الثياب وأثمن الحلي، بأيديهن مذاب من أعظم الجوهر، فإذا دخل من باب المجلس ووطىء العتبة نكسن رؤوسهن خدمة له بحركات قد أحكمت، فإذا جلس في صدر المجلس استوين قائمات.

ووجد له من المقاطع والستور والفرش والمطارح والمخاد والمساند الديباج والدبيقي الحريري والذهب على اختلاف الأجناس أربع حجر، كل حجرة مملوءة من هذا الجنس. ووجد له عدة صناديق ملء خزانة فيها أحقاق ذهب عراقي برسم الاستعمال، ووجد له منقلات عدة تزيد على المائة، ملبسة بالذهب والفضة، مرصعة بالجوهر، وثمانمائة جارية منها خمسة وستون حظية لكل واحدة حجرة، وخزائن مملوءة بالكسوة والآلات والذهب والفضة من كل صنف.

وكان في مخازنه تحت يد عماله والجباة وضمان النواحي من المال والحبوب والقطن والكتان والشمع والحديد والخشب وغير ذلك ما يتعب شرحه.

وحمل من داره أربعة آلاف بساط، وستون حملا طنافس، وخمسمائة قطعة بلور، وخمسمائة قطعة محكم برسم النقل، وألف عدل من متاع اليمن والمغرب، وتسعة آلاف سرج.

قال ابن ميسر: وكان الأفضل من العدل وحسن السيرة في الرعية والتجار على صفة جميلة تجاوز ما سمع به قديما وشوهد أخيرا، ولم يعرف أحد صودر ولا ضبط عليه.

ولما حصر الاسكندرية كان بها يهودي يبالغ في سبه وشتمه ولعنه، فلما دخل الأفضل البلد قبض عليه وقدمه للقتل وقد عدد عليه ذنوبه، فقال اليهودي: إن معي خمسة آلاف دينار، خذها مني وأعتقني واعف عني ، فقال: والله لولا خشية أن يقال قتله حتى يأخذ ماله لقتلتك، وعفا عنه ولم يأخذ منه شيئا، وكان إذا غضب على أحد اعتقله ولم يقتله، فلما مات أطلق من سجنه عشرة آلاف إنسان، فإنه كان إذا اعتقل أحد نسيه ولا يرى بإخراجه.

وكانت محاسنه كثيرة. وهو أول من أفرد مال المواريث ومنع من أخذ شيء من التركات على العادة القديمة، وأمر بحفظها لأربابها، فإذا حضر من يطلبها وطالعه القاضي بثبوت استحقاقه أمره في الحال بإطلاق ما ثبت له، واجتمع بمودع الحكم من مال المواريث التي تنتظر وصول مستحقها من شرق الدنيا وغربها مائة ألف وثلاثون ألف دينار، فرفع إليه قاضي القضاة ثقة الملك أبو الفتح مسلم بن علي الرأس عيني لما ولي أن

« قد اعتبرت ما في مودع الحكم من مال المواريث فكان مائة ألف دينار، ورفعها إلى بيت المال أولى من تركها في المودع، فإن لها السنين الطويلة لم يطلب شيء منها» . فوقع رقعته: « إنما قلدناك الحكم ولا رأي لنا فيما لا نستحقه، فاتركه على حاله لمستحقيه ولا تراجع فيه» فأخذها هذا القاضي عرفا.

وبلغ ارتفاع خراج مصر في أيامه لسنة خمسة آلاف ألف دينار، ومتحصل الأهراء ألف ألف إردب. وبنى في أيامه من المساجد والجوامع جامع الفيلة بالجرف المعروف بالرصد، والمسجد المعروف بالجيوشي على سطح الجبل، وبنى مئذنة جامع عمر بمصر الكبيرة والمئذنة السعيدة به أيضا والمئذنة المستجدة وجامع الجيزة، وعمل خيمة الفرح التي سميت بالقاتول، اشتملت على ألف ألف وأربعمائة ألف ذراع من الثياب، وقائم ارتفاع العمود الذي لها خمسون ذراعا بذراع العمل[٣٦]، وبلغت النفقة عليها عشرة آلاف ألف دينار. وللشعراء فيها عدة مدائح.

وكان الأفضل يقول الشعر. فمن شعره في غلامه تاج المعالي:

أقضيب يميس، أم هو قد
أو شقيق يلوح، أو هو خد
أنا مثل الهلال خوفا عليه
وهو كالبدر حين وافاه سعد

وكان شديد الغيرة على نسائه، اطلع من سطح داره فرأى جارية من جواريه متطلعة إلى الطريق، فأمر بضرب عنقها، فلما وضعت الرأس بين يديه أنشد:

نظرت إليها وهي تنظر ظلها
فنزهت نفسي عن شريك مقارب

أغـــار على أعطـــافهـــا مـــن ثيـــابها
حـــذارا ومـــن مســـك لها في الـــذوائب
ولي غيرة لـــو كـــان للبـــدر مثلهـــا
لما كـــان يـــرضـــى بـــاجتماع الكـــواكـــب

قال: وكـان عدة الوعاظ والقـراء والمنشدين في عـزاء الأفضل أربعمائة وعشريـن شخصا فخـرج أمر الخليفـة أن يعطى كـل واحد منهـم ثمانين دينارا، الصغير مثـل الكبير، فقال ابـن قيراط: يا مـولانا، هـذا مال كثير، فقال: إنفاذ أمرنا هذا من بعض حقـه علينا، فجاء مبلغ ما دفع نحو من أربعة وثلاثين ألف دينار.

قال: والأفضل هـو الذي أنشأ بستان البعل، والمنتزه المعـروف بالتاج، والخمس وجوه [٣٧] والبستان الكبير، والبستان الخاص بقليوب[٣٨]، وجدد بستـان الأمير تميم ببركـة الحبش، وأنشـأ الـروضة بحـري الجزيرة، وكـان يمضي إليها في العشاريات الموكبية، رحمه الله.

في مستهل ذي القعـدة خلع على القائد أبي عبـد الله بـن فاتك بـذلة مذهبة بشدة الخليفة الداعية، وحلـت المنطقة من وسطه، وخلع على ولده بذلة مذهبة، وحلت منطقته أيضا، وعلى جميع إخوته بمثل ذلك.

واستمـر ينفذ الأمـور لا يخرج شيء عن نظـره إلى مستهل ذي الحجـة، ففي يوم الجمعـة ثانيه خلع عليـه من ملابس الخاص الشريفـة في فردكم مجلس العيـد، وطوق بطوق ذهـب مرصع، وسيـف ذهب مرصـع، وسلم على الخليفة، فأمر الخليفة الأمـراء وكافة الأستاذين المحنكين [٣٩] بالخروج بين يديه، وأن يركب من المكان الذي كان الأفضل يركب منه.

ومشى في ركابه القواد على عادة من تقدمه، وخرج بتشريف الوزارة، ودخل من باب العيد راكباً، ووصل الى داره، فضاعف الرسوم وأطلق الهبات.

وفي خامسه اجتمع الأمراء واستدعى الشيخ أبو الحسن بن أبي أسامة، فحضر بالسجل في لفافة خاص مذهبة فسلمه الخليفة إلى الأجل المأمون من يده، فقبله وسلمه لزمام القصر، وأمر الخليفة المأمون فجلس عن يمينه، وقرىء السجل على باب المجلس، وهو أول سجل قرىء بهذا المكان، وكانت سجلات الوزراء قبل ذلك تقرأ بالايوان، ورسم للشيخ أبي الحسن ان ينقل نسبة الأمراء والمحنكين والناس جميعهم من الآمري الى المأموني، ولم يكن أحد قبل ذلك ينتسب للأفضل ولالأمير الجيوش، وقدمت للمأمون الدواة فعلم في مجلس الخليفة، وتقدم للأمراء والأجناد فقبلوا الارض وشكروا هذا الاحسان، واحضرت الخلع، فخلع على حاجب الحجاب حسام الملك، وطوق بطوق ذهب، وسيف ذهب ومنطقة ذهب، وخلع على الشيخ أبي الحسن بن أبي اسامة كاتب الدست، وعلى الشيخ أبي البركات بن أبي الليث، وعلى أبي الرضا سالم ابن الشيخ أبي الحسن، وعلى أبي المكارم أخيه، وعلى أبي محمد أخيهما، وعلى أبي الفضل أخيهما يحيى بن سعيد الميمذي (٤٠) ووصل بدنانير كثيرة بحكم انه قرأ السجل.

وخلع على أبي الفضائل بن أبي الليث صاحب مغفر المجلس. ثم استدعى غذي الملك سعيد بن عمار الضيف متولي امور الضيافات والرسل الواصلين الحضرة من جميع الجهات وأخذ اقلامه على التوقيعات فخلع عليه. وفي الايام الافضلية لم يكن احد يدخل مجلسه ولايصل لعتبته لامن الحجاب ولاغيرهم سوى غذي الملك هذا فانه كان يقف من داخل العتبة، وكانت هذه الخدمة اذ ذاك من اجل الخدم واكبرها.

وقال أبو الفتح بن قادوس [٤١] في مدح المأمون وقد زيد في نعوته:

قالوا أتاه النعت وهو السيد الـ
مـأمون حقاً والأجل الأشرف
ومغيث أمة أحمد ومجيرها
ما زادنا شيئاً على ما نعرف

وذلك أنه نعت في سجله المقروء على الكافة «بالأجل المأمون، تاج الخلافة، وجيه الملك، فخر الصنائع، ذخر أمير المؤمنين». ثم تجدد في نعوته بعد ذلك «الأجل المأمون، تاج الخلافة، عز الإسلام، فخر الأنام، نظام الدين والدنيا». ثم نعت بما كان ينعت به الافضل وهو «السيد الأجل المأمون، امير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين».

ولما استمر نظر المأمون للدولة بالغ الخليفة في شكره، فقال له المأمون: ثم كلام يحتاج الى خلوة. فأمر بخلو المجلس. فقال: يا مولانا امتثال الأمر متعب، ومخالفته أصعب، وما تتسع خلافة قدام آمر الدولة وهو في دست خلافته ومنصب آبائه وأجداده، وما في قواي ما يرومه مني، ويكفيني هذا المقدار، وهيهات أن أقوم به والأمر كبير، فتغير الخليفة وأقسم: ان كان لي وزير غيرك! فقال المأمون: لي شروط، وقد كنت مع الأفضل وكان اجتهد في النعوت وحل المنطقة فلم أفعل، وكان أولاده يكتبون إليه يكوني قد خنته في المال والأهل، وما كان والله العظيم ذلك مني يوماً قط، ومع ذلك معاداة الأهل جميعهم، والأجناد، وأرباب الطيالس والأقلام، وهو يعطيني كل ورقة تصل إليه منهم وما يسمع كلامهم، فقال الخليفة: فإذا كان فعل الأفضل معك ما ذكرته، إيش يكون فعلي أنا؟ فقال: يعرفني المولى ما يأمر به فأمتثله بشرط ألا يكون عليه زائداً، فأول ما ابتدأ به ان قال: أريد الأموال لاتبقى إلا بالقصر، ولاتصل الكسوات من الطراز [٤٠] والثغور إلا إليه ولا تفرق إلا منه،

وتكون أسمطة الأعياد فيه، وتوسع في رواتب القصور من كل صنف ، وزيادة رسم منديل الكم ، فقال المأمون: سمعا وطاعة، أما الكسوات والجبايات والأسمطة فما تكون إلا بالقصور، وأما توسعه الرواتب فما ثم من يخالف الأمر، وأما منديل الكم فقد كان الرسم في كل يوم ثلاثين دينارا، يكون في كل يوم مائة دينار، ومولانا سلام الله عليه، يشاهد ما يعمل بعد ذلك في الركوبات وأسمطة الأعياد وغيرها، ففرح الخليفة.وقال المأمون: أريد بهذا مسطورا بخط أمير المؤمنين، ويقسم لي فيه ألا يلتفت لحاسد ولا ينقبض، ومهما ذكر عني يطلعني عليه، ولا يأمر في بأمر سرا ولا جهرا يكون فيه ذهاب نفسي وانحطاط قدري، وتكون هذه الأيمان باقية إلى وقت وفاتي، فإذا توفيت تكون لأولادي ولمن أخلفه بعدي.

فحضرت الدواة، وكتب ذلك جميعه، وأشهد الله في آخرها على نفسه، فعندما حصل الخط بيد المأمون وقف وقبل الأرض وجعله على رأسه، وكان الخط نسختين، فلما قبض الخليفة على المأمون في رمضان سنة تسع عشرة وخمسمائة، كما سيأتي إن شاء الله، أنفذ الخليفة طلب الأمان ، فأنفذ إليه نسخة منهما فحرقها وبقيت النسخة الأخرى فعدمت.

وفيها أنشأ المأمون الجامع الأقمر بالقاهرة[٤١]، وكان مكانه دكاكين علافين.

في هذه السنة هبت بمصر ريح سوداء ثلاثة أيام، فأهلكت شيئا كثيرا من الناس والحيوان [٤٢]

سنة ست عشرة وخمسمائة

في المحرم كان المولد الآمري، وتقرر السلام على الخليفة في يوم الاثنين والخميس فأما في يومي السبت والثلاثاء فيركب الوزير بالرهجية إلى

القصر، ويركب الخليفة إلى ضواحي القاهرة للنزهة، وأما الأحد والأربعاء فيجلس الوزير المأمون في داره على سبيل الراحة.

وفي صفر سب أحد صبيان الخاص الآمري صاحب الشرع وشهد عليه، فضربت عنقه وصلب.

فيه وصل فخر الملك أبو علي عمار بن محمد بن عمار، صاحب طرابلس. وكانت الدولة، قد حولت الثغر في أيديهم على سبيل الولاية، فلما جاءت الشدائد تغلبوا عليه، ثم جاءت الدولة الجيوشية فخافوا مما قدموه فلم يرموا أيديهم في يدها ولا وثقوا بما بذل لهم من الصفح عن ولاتهم، ومضى ذلك السلف،وخلفهم القاضي فخر الملك هذا في الأيام الأفضلية فجرى في تلك الوتيرة، ودفع إلى محاصرة الفرنج مدة سبع سنين، فضاق خناقه، وأيس، فخرج من طرابلس إلى العراق مستنجدا فلم يجد ناصرا، واختلت أحواله، وعاد إلى دمشق وقد ملك الفرنج طرابلس فسار إلى مصر، وقال في كتابه:« والمملوك لم يصل إلى هذه الوجهة إلا وقد علم أن له من الذنوب السالفة ما يستحق به القتل، وقتله بسيوف هذه الدولة عدل وإحياء له وتشريف، وفخر يكفر عنه بعض ذنوبه من كفر نعمتها، فإن خرج الأمر بذلك فمنة كريمة، وإن خففت عنه فتخليده في السجن أحب إليه من رجوعه إلى تأميل غير هذه الدولة».

فلما عرض هذا بالحضرة أدركته الرأفة بعد أن أستفظع كل من الحاضرين أمره، وأشير بإيقاع الحوطة عليه وإيداعه خزانة البنود، فقال المأمون للخليفة: « قد أجل الله عواطف مولانا ورحمته من أن يهاجر أحد إلى أبوابه ويلجأ إلى عفوه فيخيب أمله ويؤاخذ بذنبه، وما بعد استسلامه إلا الشكر لله والعفو عن جرمه،فإن العفو زكاة القدرة عليه، ويشمله ما شمل أمثاله»، فأعجب الخليفة الآمر ذلك، وخرج الأمر بأن تعدد على ابن عمار ذنوبه وذنوب أسلافه، ويقال له:« قد أذهبت

مهاجرتك ما كان يجب من عقوبتك». فإذا اعترف بذنوبه وذنوب أسلافه يقال له: « قد غفر ذنبك وأنت مخير بين أمرين: إما أن تعود فيصل إليك من الإنعام ما يبلغك إلى حيث تريد، ويصحبك من يوصلك إلى مأمنك، وإما أن تؤثر الإقامة بفناء الدولة فتقيم على أنك تلزم ما يعنيك وتقنع بما ينعم به عليك، وتقبل على شأنك، وتترك التعرض للمخالطات، وتتجنب جميع المكروهات».

فلما خوطب بذلك قبل الأرض وأبى أن يرفع رأسه ووجهه، وكلما خوطب في رفعه قال: «لست أرفعه حتى أتلقى كلمات العفو عن إمام زماني، وتمتلىء مسامعي بألفاظ مغفرته».

فبلغته الحضرة النبوية ما تمناه، وحصل له الأمن، وأمر به إلى دار أعدت له وجعل فيها شهوات السمع والبصر، وحملت إليه الضيافات الكثيرة، وجرد برسم خدمته حاجب معه عدة مستخدمين. فأقام أياما يسيرة ثم حملت إليه الكسوات التي لا نظر لها، ووصله من المواهب ما أربى على أمله. وقرر له، راتبا في كل شهر، ستون دينارا مع مياومة الدقيق واللحم والحيوان، وصار يتعهد ما يفتقد به أعيان الضيوف من بواكير الفاكهة المستغربة، وأنواع التحف المستظرفة ورسوم المواسم، ورفع عنه الحاجب والمستخدمون، وجعل له في المواسم والأعياد من الكسوات الفاخرة ما يميزه به عن أمثاله، ولزم طريقة حمدت منه، فاستمر إليه الإحسان، وصار يركب في يومي الركوب ويومي السلام وغيرهم.

فيه أفرج عن الأمير عضب الدولة عز الملك أبي منصور نبا، وكان له في الاعتقال ثلاث عشرة سنة، لأنه كان والي عكا وسلمها إلى الفرنج، فلما وصل رماه الأفضل في الاعتقال، فلما أفرج عنه أعيد عليه نظير ما كان قبض عنه للاصطبلات والخزائن، وولي البحيرة.

وأفرج عن جماعة أمراء كانوا معتقلين، منهم أبو المصطفى جوهر، ودخل السجن وهو شاب فخرج منه وهو شيخ، وكانت مدة اعتقاله خمس عشرة سنة.

فيه وصل رسول الشريف قاسم أمير مكة، الذي حضر في الأيام الأفضلية بسبب أموال التجار، ومعه كتاب بتهنئة المأمون، فجهز إلى الأعمال القوصية بالاهتمام بالجناب الديوانية وترميم ما يحتاج إلى المرمة، وتجديد عوض ما تلف، وأطلق له ثمانية آلاف وتسعمائة وأربعون إردبا برسم مكة، وتخوت ثياب وخلع ومال وبخور.

وفيه غلا الزيت الطيب والسيرج، فكتب المستخدمون في الخزائن ومشارفة الجوامع بأن يكون المطلق برسم الوقود وفي المشاهد عوضا عن الزيت الطيب الزيت ا لحار، فخرج الجواب بالتحذير من ذلك وبألا يطلق إلا الزيت الطيب، ولا يلتفت إلى غلو السعر في الخدم التي هي من حق الله تعالى فلا يجب الرخصة فيه ولا ينقص من المطلق شيء. وبلغ المأمون أن مشارف الجوامع والمساجد اشترى من ماله صبرا وخلطه بالزيت لمنع القومة من التعرض لشيء منه، فأنكر ذلك وأمر بإحضاره وأن يقوم من ماله بثمن الزيت الذي فيه الصبر، ويطلق الزيت المستقر إطلاقه على تمامه. وقيل له: قومة الكنائس والمقيمون بها والطارقون لها لا يقتاتون إلا من فضلات وقود كنائسهم، ونحن نبيح لهؤلاء الأكل ونحرم عليهم البيع.

وتقدم الأمر بعمل حساب الدولة من الهلالي والخراجي على جملتين: إحداهما إلى سنة عشر وخمسمائة، والثانية إلىآخر سنة خمس عشرة وخمسمائة، فانعقدت على جملة كثيرة من عين وأصناف، وشرحت بأسماء أربابها وتعيين بلادها، فلما حضرت أمر بكتابة سجل بالمسامحة إلى آخر سنة عشر وخمسمائة، ومبلغ ما سومح به من البواقي ألفا ألف وسبعمائة

ألف وعشرون ألفا وسبعمائة وستون دينارا، ومن الورق سبعة وستون ألفا وخمسة دراهم، ومن الغلة ثلاثة آلاف ألف وثمانمائة ألف وعشرة آلاف ومائتان وتسعة وثلاثون إردبا، ومن الأرز والكتان وورق الصباغ وزريعة الوسمة والصباغ والفوة والحديد والزفت والقطران والثياب والمآزر والغرابيل شيء كثير،ومن الأغنام مائتا ألف وخمسة وثلاثون ألفا وثلاثمائة وخمسة رؤوس، ومن البسر [٤٣] والسحيل[٤٤] والجريد والسلب[٤٥] والأطراف والملح والأشنان والرمان وعسل النحل والشمع وعسل القصب شيء كثير، ومن الأبقار اثنان وعشرون ألفا ومائة وأربعة وستون رأسا، ومن الدواب والسمن والجبن والصوف والشعر شيء كثير.

وقد تقدم ذكر نسخة هذا السجل عند ذكر الخراج من هذا الكتاب.

وقرىء منشور بالجامع الأزهر وجامع عمرو بمصر بالمنع مما يعتمد في الدواوين من قبول الزيادة وفسخ عقود الضمانات، وإعفاء الكافة من المعاملين والضمناء من قبول الزيادة فيما يتصرفون فيه ما داموا قائمين بأقساطهم .

فيه تحول الخليفة الآمر إلى اللؤلؤة [٤٦] وأقام فيها مدة النيل على الحكم الأول، وأزال ما أحدث من البناء بالقرب منها، وتحول معه الوزير المأمون بن البطائحي والشيخ أبو الحسن بن أبي أسامة كاتب الدست، وحاجب الحجاب حسام الملك، ورتبت الرهجية والحرس، وأطلق لهم ما يقوم بهم، وصار الخليفة يمضي في السراديب من اللؤلؤة إلى القصر في يومي السلام، فلا يراه أحد سوى الأستاذين والخواص، ويحضر الوزير على عادته ويعمل الأسمطة، ويحضر الناس على العادة، ويركب في يومي الثلاثاء والسبت إلى المنتزهات.

فيه تقدم الوزير بتجديد المشاهد التسعة التي بين القرافة والجبل [٤٧]

وكانت العادة جارية من الأيام الأفضلية في آخر جمادى من كل سنة أن تغلق جميع قاعات الخمارين بالقاهرة ومصر وتختم، ويحذر من بيع الخمر، فرأى الوزير أن يكون ذلك في سائر الأعمال، فكتب إلى ولاة الأعمال وأن ينادى أن من تعرض لبيع شيء من هذين الصنفين أو لشرائهما سرا وجهرا فقد عرض نفسه لتلافها وبرئت الذمة من هلاكها (٤٨)

لما كان مستهل رجب عملت الأسمطة على العادة فقال الآمر لوزيره المأمون: قد أعدت لدولتي بهجتها، وقد أخذت الأيام نصيبها من ذلك، وبقيت الليالي وقد كان بها مواسم وقد زال حكمها، وهي ليالي الوقود الأربع(٤٩). فامتثل الأمر، وعملت.

واستجد في كل ليلة على الاستمرار برسم الخاصين: الآمري، والمأموني قنطار سكر ومثقالا مسك، ودينار ان برسم المؤن ليعمل خشكنان، وبستندود(٥٠) في قعاب وسلاسل صفصاف،وكان يسمى بالقبعة، ويحمل ثلثا ذلك إلى القصر والثلث إلى دار المأمون.

ووصلت كسوة الشتاء، فكانت أربعة آلاف قطعة وثلاثمائة وخمس قطع، ووصلت كسوة عيد الفطر وتشتمل على نحو عشرين ألف دينار، وكان عندهم الموسم الكبير، ويسمى بعيد الحلل لأن الحلل فيه تعم الجميع، وفي غيره للأعيان خاصة.

وعمل الختم في آخر شهر رمضان بالقصر، وعبىء سماط الفطرة في مجلس الملك بقاعة الذهب من القصر،فكان سماطا جميعه من حلاوة الموسم، وصلى الخليفة الآمر بالناس صلاة العيد في المصلى ظاهر باب النصر وخطب، وكان ذلك قد بطل في الأيام الجيوشية والأفضلية.

وكان الذي أنفق في أسمطة شهر رمضان عن تسع وعشرين ليلة،

خارجا عن التوسعة المطلقة أصنافا برسم الخليفة وجهاته، وخارجا عن العطية، وخارجا عن رسم القراء والمسحرين وخارجا عن الأشربة والحلاوات من العين ستة عشر ألف دينار وأربعمائة وستة وثلاثين دينارا. وجملة ما قدر على المنفق في شهر رمضان، بما تقدم شرحه، والتوسعة والصدقات والفطرة وكسوة الغرة والعيد، ومائة ألف دينار عينا، وضرب في خميس العدس ألف دينار عملت عشرين ألف خروبة، وكانت العادة أن يضرب في كل سنة خمسمائة دينارا(٥١).

وفي شوال هذا وصل شاور من أسر الفرنج، وكان مأسورا من الأيام الأفضلية وطالت مدة أسره، وبذلت عشيرته في افتكاكه جملة كبيرة، فلم يقبل منهم، وطلب فيه أسير من الفرنج، فلم يجبهم الأفضل إليه لأنه كان لا يطلق أسيرا أبدا، فلما ولي المأمون الوزارة وميز ردديني، مقدم العربان الجذاميين، وقبيلته - وشاور من بني سعد، فخذ من جذام - فوقف مجير، أخو شاور، وإخوته للمأمون،وما زالوا به حتى أطلق الأسر، فأطلق الفرنج شاور في شوال، وأثبت في الطائفة المأمونية، وكان هذا ابتداء حديث شاور

وفيه تنبه ذكر الطائفة النزارية، وقرر بين يدي الخليفة بأن يسير رسولا إلى صاحب ألموت بعد أن جمعت فقهاء الإسماعيلية والإمامية، وهم: ولي الدولة أبو البركات بن عبد الحقيق داعي الدعاة، وجميع دعاة الإسماعيلية، وأبو محمد بن آدم متولي دار العلم(٥٢)، وأبو الثريا بن مختار فقيه الإسماعيلية، ورفيقه أبو الفخر، والشريف ابن عقيل، وشيوخ الشرفاء، وقاضي القضاة، وأولاد المستنصر، وجماعة بني عم الخليفة، وأبو الحسن بن أبي أسامة كاتب الدست، وجماعة من الأمراء، وقال لهم المأمون: ما لكم من الحجة في الرد على هؤلاء الخارجين على الإسماعيلية؟ فقال كل منهم:لم يكن لنزار إمامة، ومن اعتقد هذا خرج عن المذهب وحل ووجب قتله، وإن كان و الده المستنصر نعته ولي عهد المسلمين

ونعت إخوته، منهم أبو القاسم أحمد بولي عهد المؤمنين، وكل مؤمن مسلم وما كل مسلم مؤمن ، وقد نطق بذلك الكتاب العزيز (٥٣).

وذكر حسين بن محمد الموصلي أن اليازوري لم يزل يسأل المستنصر إلى أن كتب اسمه على الدينار وهو ما مثاله:

ضربت في دولة آل الهدى
من آل طه وآل ياسين
مستنصر بالله جل اسمه
وعبده الناصر للدين

في سنة كذا، ولم يقم بعد ذلك إلا دون الشهر، فاستعيدت وأمر ألا تسطر.

ودليل يعضد ذلك أنه لما جرت تلك الشدائد على الإمام المستنصر وسير أولاده، وهم: الأمير عبد الله إلى عكا إلى أمير الجيوش، ثم اتبعه بالأمير أبي علي والأمير أبي القاسم، والد الحافظ،إلى عسقلان، وسير نزارا إلى ثغر دمياط سير الأعلى إلىالأعلىولم يسمح بسفر الإمام المستعلي ولا خروجه من القصر لما أهله له من الخلافة، ولا أبعده خوفا من حضور المنية، فلما وصل أمير الجيوش إلى البلاد بعد تهيئتها وتأمينها، ورغب الإمام المستنصر في عقد نكاح ولده الإمام المستعلي على ابنته، أخت الأفضل، وعقد النكاح بنفسه، سماه في كتاب الصداق مولى عهد أمير المؤمنين، وعلم عليه بخطه، ثم عند وفاة المستنصر بايع نزار الإمام المستعلي بما شاهده كل حاضر، وبما ذكرته السيدة ابنة الإمام الظاهر شقيقة الإمام المستنصر في صحة إمامته، فكتب الكتاب بجميع ذلك إلى صاحب ألموت مضمنا بشهادة الجماعة بذلك.

ثم وصل في أثناء ذلك كتب من خواص الدولة تتضمن أن القوم قد قويت شوكتهم، واشتدت في البلاد طمعتهم، وأنهم يسيرون المال مع

التجار إلى قوم يخبرون أسماءهم، وأنهم سيروا ثلاثة آلاف دينار برسم النجوى [٥٢] وبرسم المؤمنين الذين ينزل الرسل عندهم ويختفون في محلهم، فتقدم المأمون بالفحص عنهم والاحتراز التام على الآمر في ركوبه ومنتزهاته، وحفظ الدور غيرها.

ولم يزل البحث التام في طلبهم إلى أن وجدوا عند قوم من أهل البلد، فاعترفوا بأن خمسة منهم هم الرسل الواصلين بالمال من البلاد المشرقية، فراموا قتلهم، فأشار المأمون بتركهم، وأحضر الشيخ أبو القاسم بن الصيرفي، وأمر بكتب سجل يقرأ على رؤوس الأشهاد وتفرغ منه النسخ إلى البلاد بمعنى ما ذكر من نفى نزار عن الإمامة وشهر الجماعة المقبوض عليهم وصلبوا، وامتنع الآمر من قبض الألفي دينار الواصلة للنجوى وأمر بحملها إلى بيت المال، وأن تنفق في السودان عبيد الشراء خاصة، وأمر بأن يحضرمن بيت المال نظير المبلغ، وتقدم بأن يصاغ قنديلين ذهبا وقنديلين فضة، وأن يحمل قنديلان، ذهبا وفضة، إلى مشهد الحسين بعسقلان، وقنديلان كذلك إلى التربة، وأطلق المأمون من ماله ألفي دينار، وتقدم بأن يصاغ بها قنديل ذهب وسلسلة فضة برسمه على قياس أحضر من عسقلان، وأن يصاغ على المصحف الذي بخط علي بن أبي طالب رضي الله عنه بمصر من فوق الفضة ذهب

وأطلق من حاصل الصناديق التي تشتمل على مال النجاوي برسم الصدقات عشرة آلاف درهم تفرق في الجوامع الثلاثة الأزهر بالقاهرة، والعتيق بمصر، وجامع القرافة [٥٣] وإلى فقراء المؤمنين وعلى أرباب القصور، وأطلق من الأهراء ألفا إردب قمحا وتصدق عدةمن الجهات بجملة كثيرة. واشتريت عدة جوار من الحجر [٥٤] وكتب عتقهن وأطلق سراحهن .

قال ابن ميسر، وقد ذكر هذا المجلس: وقد كانت أخت نزار في قاعة

بجانب الإيوان من القصر،وعلى الباب ستر، وعلى الستر إخوتها وبنو عمها وكبار الأستاذين. فلما جرى هذا الفصل قام المأمون من مكانه ووقف بإزاء الستر وقال: من وراء هذا الستر؟ فعرف بها إخوتها وبنو عمها، وأنه ليس غيرها وراء الستر، فلما تحقق الحاضرون ذلك قالت: اشهدوا يا جماعة الحاضرين، وبلغوا عني جماعة المسلمين بأن أخي شقيقي نزارا لم يكن له إمامة، وأني بريئة من إمامته جاحدة لها لاعنة لمن يعتقدها، لما علمته من والدي وسمعته من والدتي، لما أمر المستنصر بمضيها هي والجهة المعظمة والدة عبد الله أخي إلى المنظرتين اللتين على القناطر المعروفتين بالحولا والبرياب للنزهة أيام النيل جرى بينهما مشاجرة في ولديهما، فأحضرهما المستنصر بين يديه وأنكر عليهما، وقال: ما يصل أحد من ولديكما إلى الأمر، صاحبه معروف في وقته، وشاهدت والدي المستنصر في مرضته التي توفي فيها وقد أحضر المستعلي وأخذه معه في فراشه، وقبل بين عينيه، وأسر إليه طويلا وتدمعت عيناه، وفي اليوم الذي انتقل والدي في ليلته استدعى عمتي بنت الظاهر فأسر إليها من بيننا، ومد يده إليها فقبلها وعاهدها، وأشهد الله تعالى معلنا ومظهرا، فلما انتقل في تلك الليلة حضر صبيحته الأفضل ومعه الداعي والأمراء والأجناد، ووقف بظاهر المقرمة، ثم جلس وكلهم قيام، وأخذ في التعزية، ثم قال: يا مولاتنا من ارتضاه للخلافة؟ فقالت: هي أمانة قد عاهدني عليها، وأوصاني بأن الخليفة من بعده ولده أبو القاسم أحمد، فحضر وبايعته عمتي، وبايعه أخوه الأكبر عبد الله فأشار الأفضل إلى نزار فبايعه، وأمر الأفضل بالتوكيل على نزار وتأخيره، فأخر إلى مكان لا يصلح له، واستدعى الأفضل الداعي وأمره بأخذ البيعة من نفسه ومن الموالي والأستاذين، وسألت عمتي الأفضل في نزار فرفع عنه التوكيل عليه بعد أن كلمه بكلام فيه غلظة، ووالله ما مضى أخي نزار إلى ناصر الدولة أفتكين بالاسكندرية لطلب إمامة ولا لإدعاء حق، ولكن طالبا لزوال الأفضل وإبطال أمره لما فعل معه، والله يلعن من يخالف ظاهره باطنه، فشكرها الناس على ذلك.

وكان سبب حضور أخت نزار في هذا المجلس أن المأمون قال للآمر: قد كشفت الغطاء وفعلت ما لا يقدر أحد على فعله، وأما القصر فما لي فيه حيلة، ولوح أن أخت نزار وأولاده لا يمكنني كشف أمرهم، فلما بلغ أخت نزار ذلك حضرت إلى الخليفة الآمر لتبرىء نفسها، ورغبت أن تخرج للناس لتقول ما سمعته من والدها وشاهدته ليكون قولها حجة على من يدعي لأخيها ما ليس له، فاستحسن الآمر ذلك منها وأحضر المأمون وأخاه شقيقه أبا الفضل جعفر بن المستعلي، واتفقوا على يوم يجتمعون فيه، فلما كان في شوال عمل المجلس المذكور.

وأما النزارية فإنها تقول: إن المستنصر مات والأفضل صاحب الأمر والمستحوذ على المملكة، والجند جنده، وغلمان أبيه لا يعرفون سواه، وكان نزارا، لما يرى من غلبة الأفضل على الدولة، يتكلم بما يبلغه، فينكره، فلما مات المستنصر والأفضل متخوف من شر نزار أقام أحمد (٥٥) المستعلي، لأنه زوج أخته ولأنه صغير.

وفيها أراد الآمر أن يحضر إلى دار الملك في يوم النوروز الكائن في جمادى الآخرة، ويركب إليها في المراكب على ما كان عليه الأفضل، فمنعه المأمون من ذلك وقال: يا مولانا، الأفضل لا يجري مجرى أمير المؤمنين، وحمل إليه من الثياب الفاخرة برسم جهاته ماله قيمة جليلة (٥٦)

وفي شوال بلغ المأمون أن جزيرة قويسنا (٥٧) ومنية زفتي (٥٨) ليس فيهما جامع، فتقدم إلى بعض خواصه وخلع عليه، فسار وبنى جامعا على شاطىء النيل بمنية زفتي، وقرر فيه خطيبا وإماما ومؤذنين، وفرش، وأطلق برسمه نظير ما للجوامع.

وفيه وصل الفقيه أبو بكر محمد بن محمد الفهري الطرطوشي من الإسكندرية بالكتاب الذي حمله: « سراج الملوك»، فأكرمه وأمر بإنزاله في

المجلس المهيأ للأخوة، وتقدم برفع أدوية [٦٠] الكتاب وأوطئة الحساب وسلام الأمراء، وعمل السماط، وسارع إلى البادهنج[٦١]، واستدعى بالفقيه، فلما شاهده وقف، ونزل عن المرتبة، وجلس بين يديه، ثم انصرف، ومعه أخو المأمون، إلى مكان أعد له، وحمل إليه ما يحتاج له وأمر مشارف الجوالي[٦٢] أن يحمل له في كل يوم خمسة دنانير بمقتضى توقيع مقتضب، فامتنع الفقيه وأبى أن يقبل غير الدينارين اللذين كانا له في الأيام الأفضلية. وصار المأمون يستدعيه في يومي راحته، ويبالغ في كرامته، ويقضي شفاعاته.

وكان ا لسبب في حضوره أنه تكلم في الأيام الأفضلية في أمر المواريث وما يأخذه أمناء الحكم من أموال الأيتام، وهو ربع العشر، وأمر توريث الابنة النصف فلم يقبل ذلك، ففاوض المأمون فيه وقال: هذه قضية وجدتها وما أحدثتها وهي تسمى بالمذهب الدارج، ويقال إن أمير الجيوش بدر هو الذي استجدها، وهو أن كل من مات يعمل في ميراثه على حكم مذهبه، وقد مر على ذلك سنون وصار أمرا مشروعا، فكيف يجوز تغييره.فقال له الفقيه: إذا علمت ما يخلصك من الله غيرها فلك أجرها. فقال أنا نائب الخليفة، ومذهبه ومذهب جميع الشيعة من الزيدي، والإمامي والإسماعيلي أن الإرث جميعه للابنة خاصة بلا عصبة ولا بيت مال، ويتمسكون بأنه من كتاب الله كما يتمسك غيرهم. وأبو حنيفة، رحمة الله، موافقهم في القضية. فقال الفقيه: أنا مع موجود العصبة فلا بد من عدتها. فقال المأمون أنا لا أقدر أن أرد على الجماعة مذهبهم، والخليفة لا يرى به وينقضه على من أمر به، بل أرى بشفاعة الفقيه ان أراد الجميع على رأي الدولة فيرجع كل أحد على حكم رأيه في مذهبه فيما يخلصه من الله، ويبطل حكم بيت المال الذي لم يذكره الله في كتابه، ولا أمر به الرسول عليه السلام، فأجاب إلى ذلك. وأمر الوزير أن يكتب به وأن يكتب بتعويض أمناء الحكم عما يقتضونه من ربع العشر بتقرير جار لهم في كل شهر من مال الديوان على المواريث الحشرية[٦٣] .

وأخذ الفقيه في ذكر بقية حوائج أصحابه، وكتب منه توقيع فرغت منه نسخ، منها ما سير إلى الثغور وكبار الأعمال، وشملته العلامة الآمرية وبعدها العلامة المأمونية.. ونسخته بعد البسملة:« خرج أمر أمير المؤمنين بإنشاء هذا المنشور عندما طالعه السيد الأجل المأمون أمير الجيوش - ونعوته والدعاء - وهو الخالصة أفعاله في حياطة المسلمين وذو المقاصد المصروفة إلى النظر في مصالح الدنيا والدين، والهمة الموقوفة على الترقي إلى درجات المتقين، والعزائم الكافلة بتسديد أحوال الكافة أجمعين، شيمة خصه الله بفضيلتها جبلة أسعد بجلالها وشريف مزيتها، والله سبحانه يجعل آراءه للتوفيق مقارنة وأنحاء للميامن كافلة ضامنة، من أمر المواريث وما أجراها عليه الحكام الدارجون بتغاير نظرهم، وقرروه من تغيير عما كان يعهد بتغلب آرائهم، وما دخل عليها منهم من الفساد، والخروج بها عن المعهود المعتاد، وهو أن لكل دارج من الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين مذاهبهم واعتقاداتهم تحمل ما يترك من موجوده على حكم مذهبه في حياته والمشهور من اعتقاده إلى حين وفاته،فيخلص لحرم ذوي التشيع الوارثات جميع موروثهم، و هو المنهج القويم لقول الله سبحانه: « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم» (٦٤). ويحمل من سواهن على مذهب مخلفيهن، ويشركهم بيت مال المسلمين في موجودهم، ويحمل إليه جزء من أموالهم التي أحلها الله لهن بعدهم، عدولا عن محجة الدولة،وخروجا عما جاء به العباد بعدموت الأئمة الذين نزل في بيتهم الكتاب والحكمة، فهم قراء القرآن، وموضحو غوامضه ومشكلاته بأوضح البيان، وإليهم سلم المؤمنون، وعلى هديهم وإرشادهم يعول الموقنون، فلم يرض أمير المؤمنين الاستمرار في ذلك على قاعدة واهية الأصول، بعيدة من التحقيق خالية من المحصول، ولم ير إلا العود فيه إلى عادة آبائه المطهرين، وأسلافه العلماء المهديين، صلوات الله عليهم أجمعين، وخرج أمره إلى السيد الأجل المأمون بالإيعاز إلى القاضي ثقة

الملك النائب في الحكم عنه، بتحذيره، والأمر له بتحذير جميع النواب في الأحكام بالمعزية القاهرة ومصر وسائر الأعمال، دانيها وقاصيها، قريبها ونائيها، من الاستمرار على تلك السنة المتجددة، ورفض تلك القوانين التي كانت معتمدة واستئناف العمل في ذلك بما يراه الأئمة المطهرة،وأسلافه الكرام البررة، وإعادة جميع مواريث الناس على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم إلى المعهود من رأي الدولة فيها، والإفراج عنها برمتها لمستحقيها، من غير اعتراض عليهم في قليلها ولا كثيرها، وأن يضربوا عما تقدم صفحا،ويطووا دونه كشحا، منذ تاريخ هذا التوقيع، وفيما يأتي بعده مستمرا غير مستدرك لما فات ومضى، ولا متعقب لما ذهب وانقضى».

« وليوعز الأجل المأمون، عضد الله به الدين، بامتثال هذا المأمور، والاعتماد على مضمون هذا المسطور، وليحذر كلا من القضاة والنواب، والمستخدمين في الباب، وسائر الأعمال، من اعتراض موجود أحد ممن يسقط بالوفاة وله وارث بالغ رشيد، حاضر أو غائب، ذكرا كان أو أنثى، من سائر الناس على اختلاف الأديان بشيء من التأويلات، أو تعقب ورثته بنوع من أنواع التعقبات، إلا ما أوجبته بينهم المحاكمات والقوانين الشرعيات الواجبات، نظرا إلى مصالح الكافة، ومداً لجناح العاطفة عليهم والرأفة ، ومضاعفة للأنام وإبانة عن شريف القصد إليهم والاهتمام .

فأما من يموت حشريا ولا وارث له حاضر ولا غائب، فموجوده لبيت المال بأجمعه عن الأوضاع السليمة، والقوانين المعلومة القويمة،إلا ما يستحقه زوج إن كان له ، أو دين عليه يثبت في جهته، وإن سقط متوفى وله وارث غائب فليحفظ الحكام والمستخدمون على تركته احتياطا حكميا، وقانونا شرعيا مصونا من الاصطلام، محروسامن التفريط

والاحترام، فإن حضر وأثبت استحقاقه ذلك في مجلس الحكم بالباب، على الأوضاع الشرعية الخالصة من الشبه والارتياب، طولع بذلك ليخرج الأمر بتسليمه إليه والإشهاد بقبضه عليه.

كذلك نمي إلى حضرة أمير المؤمنين أن شهود الحكم بالباب وجميع الأعمال إذا شارف أحد منهم بيع شيء مما يجري في المواريث من الترك التي يتولاها الحكام يأخذون ربع العشر من ثمن المبيع، فيعود ذلك بالنقيصة في أموال الأيتام، والتعرض إلى الممنوع الحرام، اصطلاحا استمروا على فعله، واعتمادا لم يجر الأمر فيه على حكمه، فكره ذلك وأنكره، واستفظعه وأكبره، واقتضى حسن نظره في الفريقين، ما خرج به أمره من توفير مال الأيتام، وتعويض من يباشر ذلك من الشهود جاريا يقام لكل منهم من الإنعام، وأمر بوضع هذا الرسم وتعفيته، وإبطاله وحسم مادته، فليعتمد القاضي ثقة الملك ذلك بالباب، وليصدر الإعلام على سائر النواب، سلوكا لمحجة الدين، وعملا بأعمال الفائزين السعداء المتقين، بعد تلاوة هذا التوقيع في المسجدين الجامعين بالمعزية القاهرة المحروسة ومدينة مصر على رؤوس الأشهاد، ليتساوى في معرفة مضمونه كل قريب وبعيد وحاضر وباد، ولتفرغ منه النسخ إلى جميع النواب عنه في الأعمال، وليخلد في مجلس الحكم بعد ثبوته في ديواني المجلس والخاص الآمري، وحيث يثبت مثله إن شاء الله تعالى حجة مودعة في اليوم وما بعده.

وكتب لليلتين بقيتا في ذي القعدة سنة ست عشرة وخمسمائة».

ثم حضر الفقيه أبو بكر لوداع الوزير، وعرفه ما عزم عليه من إنشاء مسجد بظاهر الثغر على البحر، فكتب إلى ابن حديد بموافقة الفقيه على موضع يتخيره، وأن يبالغ في إتقانه وسرعة إنجازه، وتكون النفقة عليه من مال ديوانه دون مال الدولة، وتوجه فبنى المسجد المذكور على باب البحر، وأما المسجد الذي بالمحجة فإن المؤتمن عند مقامه بالثغر بناه.

وذكر للمأمون أيضا أن واحات البهنسا [٦٥] ليس بها جمعة تقام، فأمر ببناء جامع بها، ففرغ منه وأقيم فيه خطيب وإمام وقومة ومؤذنون، وأطلق لهم ما هي عادة أمثالهم.

وقيل إن الذي أنشأه المأمون في وزارته وفي أيام الأفضل أحد وأربعون مسجدا، مع ما أمر بتجديده، بعد وزاراته، بالقاهرة ومصر وأعمالهما ما يناهز مائتي مسجد.

فيه بنيت دار ضرب بالقاهرة ودار وكالة [٦٦].

وفي ذي القعدة مات الأمير السعيد محمود بن ظفر، والي قوص. وركب المأمون إلى الجامع الأزهر، فلما كان وقت صلاة الصبح تقدم قاضي القضاة ثقة الملك أبو الفتح مسلم بن علي الراسعيني وصلى، فلما قرأ الفاتحة لحقه زمع شديد وارتعد، فلحن في الفاتحة، وقرأ:« والشمس وضحاها»، فلما قال:« ناقة الله وسقياها» أرتج عليه، فرد المؤتمن حيدرة، أخو المأمون، عليه، فاشتد زمعه فكرر عليه الرد، فلم يهتد وقال: «وسقناها» بالنون. فقرأ المأمون بقية السورة وسجد الناس. وقام في الركعة الثانية وقد دهش فلم يفتح عليه بشيء، فقرأ المأمون الفاتحة« وقل هو الله أحد»، وقنت وهو معه يلقنه. فلما انقضت الصلاة اشتد غضب المأمون وأمر متولي الباب بأن يختم المقرئون. وتخيل المقام وخرج من الجامع، فوكل بالقاضي من يمضي به إلى داره ويأمره بالمقام بها من غير تصرف حتى يحفظ القرآن، وقرر له راتبا فيما بعد،، ولزم داره.

وأنفذ للوقت إلى القاضي أبي الحجاج يوسف بن أيوب المغربي، من قضاة الغربية، فأحضره وخلع عليه في القصر بذلة مذهبة، وسلم به على الخليفة، وسلم إليه السجل في لفافة مذهبة بنيابته في الحكم العزيز، والخطابة، والصلاة وديوان الأحباس ودورالضرب بسائر أعمال المملكة،

ونعت فيه بالقاضي جلال الملك تاج الأحكام، فقبله ووضعه على رأسه. وتلي على منابر القاهرة ومصر.

وكان يحضر في يومي الاثنين، والخميس إلى مجلس المظالم بين يدي المأمون، ويستعرض القصص ويناقش فيها، ويباحث مباحثة الفقهاء العلماء، فزاد المأمون في إكرامه، ورد إليه وكالة الخليفة، وكتبت له الوكالة، وشرف بالخلع.

وتولى قوص الأمير مؤيد الملك وخلع عليه، وأمر أن يبني بقوص دار ضرب، وجهز معه مهندسين وضرابين وسكك العين والورق، وعشرين ألف دينار وعشرين ألف درهم فضة، فضربت هناك دنانير ودراهم، وصار كل ما يصل من اليمن والحجاز من الدنانير العدنية وغيرها يضرب بها.

وصار ما يضرب باسم الآمر في ستة مواضع: القاهرة، ومصر، وقوص، وعسقلان، وصور، والإسكندرية.

وقرر للشيخ أبي جعفر يوسف بن أحمد بن حسديه بن يوسف، الإسرائيلي الأصل، لما قدم من الأندلس وصار ضيف الدولة، جار وكسوة شتوية وعيدية ورسوم [٦٧] وأقطع دارا بالقاهرة، وكتب له منشورا نسخته بعد البسملة:

« ولما كان من أشرف ما طرزت السيرة بقدره، وأنفس ما وشحت الدولة بجميل أثره، تخليد الفضائل وإبداء ذكرها، وإظهار المعارف وإيضاح سرها، لا سيما صناعة الطب التي هي غاية الجدوى والنفع، وورود الخبر بأنها قرينة إلى الشرع. لقوله صلى الله عليه وسلم: (العلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان)خرج أمر سيدنا ومولانا لما يؤثره بعلو

همته من إنماء العلوم وإشهارها، واختصاص الدولة الفاطمية بإحياء الفضائل وتجديد آثارها، ليبقى جمال ذلك شاهدا لها على مر الأيام، متسقا بما أفشاه لها من المآثر الجمة والمفاخر الجسام، لشيخنا أبي جعفر يوسف بن أحمد بن حسديه، أيده الله، لصرف رعايته إلى شرح كتب أبقراط التي هي أشرف كتب الطب وأوفاها، وأكثرها إغماضا وأبقاها، وإلى التصنيف في غير ذلك من أنحاء العلوم، مما يكون منسوبا إلى الأوامر العالية، ورسم التوفر على ذلك والانتصاب له، وحمل ما يكمل أولا أولا إلى خزائن الكتب، وإقراءجميع من يحضر إليه من أهل هذه الصناعة، وعرض من يدعيها واستشفافه فيما يعانيه، فمن كملت صناعته فليجره على رسمه، ومن كان مقصرا فليستنهضه، واعتمدنا عليه في ذلك لكونه مميزا في البراعة في العلوم متصرفا في فنونها، مقدما في بسطها وإظهار مكنونها، ولأنه يبلغ الغرض المقصود في شرح هذه الكتب ويوفي عليه، ويسلك أوضح السبل وأسدها إليه، وفي جميع ما شرع له، فليشرع في ذلك مستعينا بالله، منفسح الأمل بإنهاضنا له، وجميل رأينا فيه، بعد ثبوته في الدواوين إن شاء الله تعالى.

وكتب في ذي القعدة سنة ست عشرة وخمسمائة فانتصب لطلبي علم الطب، وأقبل أطباء البلدين إليه، واجتمع في أيدي الناس من أماليه كثير، وجعل له يومين في الجمعة يشتغل فيهما، ويتوفر في بقية الأسبوع على التصنيف، وحمل ذلك إلى الخزائن، واستخدم كاتبين لتبييض ما يؤلفه.

ولما أهل ذو الحجة جرى الحال في الهناء ومدائح الشعراء في القصر بين يدي الخليفة وبالدار المأمونية على الحال المستقرة، واستقبله المأمون بالصيام، وأخرج من ماله ما زاد عن المستقر في كل عام، برسم الأطفال من الفقراء والأيتام، من أهل البلدين وغيرهم، ولم يتعرض لطلب ذلك

من المميزين بحكم ما يعملونه من السنين المتقادمة. ومما ابتكره ولم يسبقه إليه أحد استعمل ميقاظ حرير فيه ثلاث جلاجل، وفتح باب طاقة في الروشن من سور داره، فصار إذا مضى شطر الليل وانقطع المشي طرحت السلسلة ودلي الميقاظ من الطاق، وعلى هذا المكان جماعة مبيتون بحقه من المغاربة، فمن حضر من الرجال والنساء متظلما شد رقعته في الميقاظ بيده ويحركه بعد أن يقف من حضره على مضمون الرقعة، فإن كانت مرافعة لم يمكنوه من رفعها، وإن كانت ظلامة مكنوه من ذلك ويعوق صاحبها إلى أن يخرج الجواب.

وكان القصد بعمل ذلك أنه من حدث به ضرر من أهل الستر، أو كانت امرأة من غير ذات البروز ولا تحب أن تظهر، أو كانت مظلمة في الليل تتعجل مضرتها قبل النهار فلتأت لهذا الميقاظ.

وحضرت كسوة عيد النحر، وفرقت الرسوم على من جرت عادته بها، خارجا عما أمر به من تفرقة العين المختص بهذا العيد وأضحيته،فكان منها سبعة عشر ألفا وستمائة دينار برسم القصور جميعها، وجملة ما نحر وذبح الخليفة خاصة، دون الوزير، في ثلاثة أيام النحر ألف وتسعمائة وستة وأربعون رأسا، منها نوق مائة وثلاثة عشر، وبقر ثمانية عشر رأسا، وجاموس خمسة عشر، والبقية كباش، ومبلغ المصروف على أسمطة الثلاثةأيام، خارجا عن أسمطة الوزير، ألف وثلاثمائة وستة وعشرون دينارا، ومن السكر ثمانية وأربعون دينارا.

وعمل عيد الغدير [٦٨] على رسمه. وركب الخليفة إلى قليوب، ونزل بالبستان العزيزي لمشاهدة قصر الورود[٦٩] على العادة المستقرة والسنة المتقدمة، وفرقت الصدقات في مسافة الطريق، وضربت الخيم، وقدمت الأسمطة. ثم عاد في آخر النهار إلى قصره.

في هـذه السنة سير المأمـون وحشي بـن طـلائع إلى صور، فقبـض على مسعود بن سلار، واليها لمخالفته، وأحضره.

فيهـا تجهز الأسطـول وسارت المراكـب، فيهـا خمسة عشر ألـف أردب قمحا وأقوات كثيرة، إلى صور، فلما وصل خرج إليـه سيف الدولة مسعود واليهـا مـن جهة طغتكين، فلما سلـم عليهـم سـألوه النـزول إليهـم، فلما حصل في المراكـب اعتقل، وأقلع الأسطـول به إلى مصر، فأكـرم وأنزل في دار، وأطلق له ما يحتاج إليه، وسبب القبـض عليه كثرة شكوى أهل صور منه.

وفيها وصل البدل من ثغر عسقلان على العادة.

سنة سبع عشرة وخمسمائة

في غرتها عمل بـرسم أول العام [٧٠]، ثم حزن عاشوراء [٧١]، فالمولد الآمري على مـا جرى بـه الرسم. وخلـع على المؤتمن سلطان الملـوك نظام الديـن أبي تراب حيدرة، أخـي الوزير المأمـون، بدلـة مذهبة خـاص من لباس الخليفة، وطوق ذهب، وسيـف ذهب بغير منطقة، وشرف بتقبيل يد الخليفة في مجلسـه، وسلم إليه تقليـد في لفافة مذهبـة بولاية الإسكنـدرية والأعمال البحرية، وشـدت له الأعلام القصب والفضـة والعماريات[٧٢]، وحمل بين يديه الأكيـاس برسم التفرقة. وحجبه الأمـراء والأستاذون، وقبل أبواب القصر، ومضى إلى داره، وأطلق له من ارتفاع ثغر الإسكندرية على الولايتين في الشهر خمسمائة دينار.

وثار اللـواتيون وغيرهـم بالصعيد الأدنـى، وقتلوا زيـن الدولـة علي بن أبي تـراب الوالي،وعـاثوا فـي البلاد وأفسـدوا،فخرج إليهم المـؤتمن أخو الوزير وتاج الدولة بهرام زمـان [٧٣] الأرمن في عدة وافرة، فانهزموا بين يـديـه، واحاط بمـا خلفـوه من المـواشي.

وبلغه نـزول مراكب الـروم والبنادقـة، وهي بضع وعشرون مـركبا، على الإسكندرية، فبادر إليها، فلما شاهده العدو أقلع، فأخذ منهم عدة قطع، وقدم على المؤتمن مشـايخ اللواتيين والتزمـوا بحمل ثلاثين ألـف دينار في نظير جنـايتهم، وأن يعفى عنهم، فأجـابهم الوزير الـى ذلك، وحمل المال مع الرهائن.

وكان المؤتمن لما قـدم إلى الثغر خيم بظـاهره، وقبل مـن القاضي مكين الـدولة أبي طـالب أحمد بـن الحسـن بن حـديـد بن أحمد بـن محمد بـن حمدون، المعروف بـابن حـديدمتولي الأحكـام والإشراف بها، ما حملـه إليه على حكم الضيافـة ثلاثة أيام، ثم أمـره بإيقافها بعد ذلـك إلا ما يقتضيه رسمـه خاصـة، وأظهـر كتاب أخيـه الـوزير بـأن الغـلال بالثغـر وأعمال البحيرة كثيرة، وكذلـك الأغنام مـع قطيعة العـربان، فمهما دعـت الحاجة إليه بـرسم أسمطة العسـاكر يحمل ويساق، وتكتـب به الوصـول على ما جرت به العادة، وأمره ألا يقبل من أحد من التجار ضيافة ولاهدية .

وأظهر كتـابا آخـر إلى مكين الدولة بـأن يطلق في كـل يوم مـن ارتفاع الثغـر من العين مـا يبتاع بـه جميـع ما يحتـاج إليـه من الأصنـاف برسـم الأسمطة للعساكر، وكان يستخدم عليها من يراه من الشهود.

وكان تجار الثغـر قد حملوا ثـلاثة آلاف دينـار فأبى المؤتمن مـن قبولها، وأمر بإعـادتها إلى أربابها، فأخذ مكين الدولة يتلطـف في أن يكون عوض ذلك طرفا وطيبـا، فأقسم أنه لا يقبل منهم شيئـا، واستمرت الأسمطة في كل يوم، ولم يقبل لأحد هدية.

واتفق أن المؤتمن وصف له الطبيب دهـن شمع والقاضي مكين الدولة حـاضر، فـأمـر في الحال بعض غلمانـه بـالمضي إلى داره ليحضر الـدهـن المذكور، فلم يكـن أكثر من مسافـة الطريق حتى أحضر صرا مختـوما فك

عنه، فوجد فيه منديل لطيف مجاوم مذهب (٧٤) على مذاق بلور فيه ثلاث بيوت كل بيت عليه قبة ذهب مشبكة مرصعة بياقوت وجوهر،بيت دهن بمسك، وبيت دهن بكافور، وبيت دهن بغير طيب، ولم يسكن فيه شيء مصنوع لوقته.فلما رآه المؤتمن والحاضرون (تعجبوا) من علو همة القاضي وجليل رئاسته وسعة نفسه، فحلف بالحرام إن عاد إلى ملكه، فقال المؤتمن، قد قبلته منك ليس لحاجة إليه، ولا نظر في قيمته، بل لإظهار هذه الهمة وإذاعتها، وذكر أن قيمة المذاق المذكور خمسمائة دينار.

وخلع المؤتمن على القاضي بذلة مذهبة بطيلسان مقور وثياب حرير، وقدم له دابة بمركب حلي ثقيل، ثم خلع عليه في اليوم الثاني والثالث كذلك، وخلع على أخيه حلتين مكللتين مذهبتين ورزمة فيها شقق حريرية مما يختص بالنساء، وأنعم على كل من حواشيه وأصحابه.

وعاد إلى القاهرة، فمدحه عدة من الشعراء.

وورد رسل ظهير الدين طغتكين، صاحب دمشق، وآق سنقر، صاحب حلب، بالحث على غزو الفرنج، وكبيرهم علي بن حامد، الحاجب، فلما وصلا باب الفتوح ترجلا وقبلاه، ومشيا إلى أبواب القصور ففعلا مثل ذلك، وأوقفا عند باب البحر (٧٥) قدر ما جلس الخليفة، فجهز عسكر في البر مقدمه حسام الملك النرني، وسار الأسطول في أربعين شينيا فوصلوا إلى عسقلان، وخرجت للغارات وعادت بالغنيمة.

فاجتمعت طوائف الفرنج، وكتب إلى حسام الملك أن يقيم بالثغر، ويلقى الفرنج عليه ولا يتعداه، فخالف ذلك، وتوجه مخفاً بغير ثقل ونزل على يافا فقتل وأسر، فعندما قصده الفرنج رحل وهم يتبعونه حتى وافى يبنا فلقيهم هناك، فانهزم العسكر من غير قتال، وقتل الراجل بأسره، وعاد من بقي مهزوما إلى عسقلان.

ووصل الخبر بذلك فأهم الآمر والمأمون، واشتد الحنق على حسام الملك لسوء تدبيره فآل أمره بعد أمور إلى أن قتل.

فيها خرج أمر المأمون إلى الواليين بمصر والقاهرة بإحضار عرفاء السقائين وإلزام المتعيشين منهم بالقاهرة بحضورهم متى دعت الحاجة إليهم ليلا ونهارا، بالطواري والمساحي، وأن يقوما لهم بالعشاء من أموالهما.

وعمل بعض التجار لابنته فرحا في إحدى الآدر المعروفة بالأفراح، فتسور ملاك الدار على النساء وأشرفوا عليهم والعروس في المجلى، فأنكر عليهم ذلك، فأساءوا وأفسدوا على الرجل ما صنعه، فخرج مستغيثا فخشوا عاقبة فعلهم، فما زالوا به حتى كف عن شكواهم. فلما حضر والي مصر بالمطالعة في الصباح إلى الوزير على عادته، قيل له: لم لا ذكرت في مطالعتك ما جرى للتاجر الذي عمل فرح ابنته؟ فاعتذر بأن المرسوم له ألا يذكر ما يخرج عن السلامة والعافية ولم يتصل به ماجرى في الفرح. فأسمعه ما أمضه، وبين عجزه وتقصيره، وقال له: والسلامة والعافية أن يخرج بالرجل ويهان وتنتهك حرمته ولا يجد ناصرا؟!.

فرسم بإحضار شاهدين ومهندسين، وتوجهوا إلى سائر الدور المختصة بالأفراح وإحضار ملاكها، فمن رغب في استمرار ملكه على حاله فليزل التطرق إليه ويكتب عليه حجة بالقسامة بذلك، ومن لم يرغب فلتؤخذ عليه الحجة بألا يؤجر ملكه للأفراح ويتصرف فيه على مايريد، فامتثل ذلك.

وجرى الرسم في عمل المولد الكريم النبوي في ربيع الأول على العادة.

وكتب لجميع الأعمال، خلا قوص، وعسقلان، بمطالعة كل وال منهم

في مستهل كل شهر بمن حواه السجن والموجب لاعتقاله، ويبين كل منهم ذلك ويعتمد فيه الحق، وسبب ذلك أنه رفع إلى المأمون أن بعض الولاة يعتقل من لايجب عليه اعتقال، لطلب رشوة، فتطول مدته.

وفيه قرر برسم رش مابين البلدين، مصر والقاهرة، في كل يوم من اليومين اللذين يركب فيهما الخليفة مما يصرف للسقائين دينار واحد، فاستمر ذلك يطلق لهم إلى الأيام الحافظية، وكان سبب إطلاق هذا القدر أنه رفع للوزير المأمون أن واليي القاهرة ومصر يأخذان جميع السقائين أرباب الجمال والدواب لرش مابين البلدين سخرة بغير أجرة.

وفي جمادى الآخرة أعيد ثغر صور إلى ظهير الدين طغتكين، صاحب دمشق، وكتب له بذلك، وفخم فيه وعظم، ونعت بسيف أمير المؤمنين، وجهزت إليه الخلعة، وهي بدلة طميم منديلها[٧٦] طوله مائة ذراع شرب، فيه ثمانية وعشرون ذراعا مرقومة بذهب عراقي، وثوب طميم جميعه برقم ذهب عراقي، سلف المنديل والثوب ألف دينار، وثوب دبيقي وسطاني، وثوب سقلاطون[٧٧] داري، وثوب عتابي، وشاشية دبيقي، ولفافة، وجميع ذلك في تخت مبطن عليه لفافة دبيقي، وغير ذلك من الكساوى برسم نسائه وأصحابه، وجهز لأمين الدولة جمشتكين، صاحب صلخد، بدلة مذهبة ومنديلها، وعدة ثياب، وغيرها.

في شعبان وصلت الأساطيل بمن فيها سالمين، وقد غنموا شينيين من شواني الفرنج وبطسة كبرى، وعدة من النساء والرجال، وذكر للمأمون أن الأسرى المذكورين يؤخذ منهم في الفداء مايزيد عن عشرين ألف دينار عينا، فقال: والله لاأبقي منهم أحدا، قد قتل لنا خمسمائة رجل يسوون مائة ألف، وقد أظفر الله بما يكون دية عنهم، لايشاع عنا أنا بعنا الفرنج وربحنا أثمانهم عوضا عن رجالنا.

وركب الخليفة بما جرت به العادة، واصطفت العساكر بالعدد والأسلحة، وعاد، وخلع على الأمراء وعلى زمام الأسطول والرؤساء.

وحضرت الحجاب، المندوبين لقتل الفرنج، بأنهم لما شاهدوا الحال بذلوا في خلاص أنفسهم ثلاثين ألف دينار، وأنه يرجى منهم أكثر من ذلك، فكتب الجواب بالإنكار وإمضاء السيف فيهم، فقتل الرجال بأسرهم وقد اجتمع الناس وضجوا بالتهليل والتكبير عند قتلهم، فكان أمرا مهولا، وقد ذكر هذا اليوم عدة من الشعراء.

وجرى الرسم في أسمطة شهر رمضان، والركوب إلى الجمع، وفي كسوة غرة شهر رمضان على العادة.

وفيه سير هلال الدولة سوارا رسولا إلى حرة اليمن[٧٨] وصحبته برسمها من التشريف مما لبسه الخليفة ومازج عرقه من الحلل المذهبات والملاءات الشرب المذهبة والشقق النفوسي والمغربي المقصور والإسكندراني المطرز جملة كثيرة في تخوت مدهونة مبطنة، وسلال مملوءة من لحم الناقة التي نحرت بالمصلى، واثني عشر مجلسا[٧٩] من المساطير التي تقرأ كل خميس وعليها علامة الخليفة، وكثير من النحاس القضيب والمرجان، وكتب إليها كتابا في قطع الثلثين أوله:

«من عبد الله ووليه المنصور أبي علي الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين، ابن الإمام المستعلي بالله أمير المؤمنين، صلى الله عليهما، إلى الحرة الملكة السيدة الرضية، الطاهرة الزكية، وحيدة الزمن، سيدة ملوك اليمن عدة الاسلام، خالصة الإمام، ذخيرة الدين، عصمة المسترشدين، كهف المستجيرين، ولية أمير المؤمنين، وكافلة أوليائه الميامين، أدام الله تمكينها ونعمتها، وأحسن توفيقها ومعونتها».

وفي آخره:«وأمير المؤمنين متطلع إلى علم أخبارك، ومعرفة أنبائك، فتواصلي بإنهاء المتجدد منها إن شاء الله، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته»، ويطوى مدورا ويختم بحرير وأشرطة ذهب وعنبر عجين ويجعل في خريطة.

فيه قرىء بالجامع العتيق منشور، نسخته بعد التصدير:

«بأننا لم نزل منذ ناطت بنا الحضرة المطهرة، صلوات الله عليها، الأمور، وعولت على كفايتنا في سياسة الجمهور، وردت إلينا النظر فيما وراء سرير خلافتها، وفوضت إلى إيالتنا من مصالح دولتها، وعبيدها ورعيتها، في محاسن الأفعال ناظرين، وعلى بسط العدل والإحسان على الكافة متوفرين، وبحسن توفيق الله تعالى لنا واثقين، وبمراشده الهادية مسترشدين، فلا ندع وجها من دعوة البر إلا قصدناه، ولاباباً من أبواب الخير إلا ولجناه، ولانعلم أمرا فيه قربى إلى الله سبحانه ونفع للرعية إلا أتيناه، ولا شيئا يعود بثواب الله وحسن الأحدوثه إلا اعتمدناه، شيمة خصنا الله تعالى بميزتها، وسجية أسبغ علينا جلاليب يمنها وسعادتها، وعملا في ذلك بشريف آراء الحضرة المطهرة، صلوات الله عليها، وجميل سيرتها، واستمرارا على منهج الدولة الزاهرة، خلد الله ملكها، وكريم عادتها، وذهابا في ذلك مع سجيتها الحسنى، ونشرا لأرج ذكرها في الأبعد والأدنى، والله تعالى المسؤول أن يعيننا على مصالح الدنيا والدين، ويقضي لنا بالفوز المبين، ويصلح لنا وبنا كل فاسد، وينظم لنا عقود السعود والمحامد بمنه.

ولما كان أحسن ماتطرز به محاسن السير، وتتناقل ذكره ألسنة البدو والحضر، وتجني ثمرته في الدنيا والآخرة، وتحمد مغبته في العاجلة والآجلة، التقرب إلى الله تعالى في كل أوان، وابتغاء ثوابه في كل زمان، لاسيما شهر رمضان، الذي تزكوا فيه أفعال البر والصلاح، وتتضاعف فيه

الحسنات في الغدو والرواح، رأينا ماخرج به أمرنا من كتب هذا المنشور بمسامحة كافة سكان الرباع السلطانية[٨٠] بالقاهرة ومصر من الأدر والحمامات والحوانيت والمعاصر والأفرنة والطواحين والعرص، وجميع مايجري في الرباع خارجا من ربع الأحباس وربع المواريث المنصرف مستخرج ارتفاعها فيما يجري هذا المجرى من وجوه البر، بأجرة شهر رمضان من كل سنة، لاستقبال رمضان سنة سبع عشرة وخمسمائة ومابعدها، إحسانا يسير ذكره كل مسير، وتعظيما لحرمة هذا الشهر العظيم الخطير، الذي فضله الله على جميع الشهور، وأنزل فيه قرآنه المجيد، وفرض صيامه على أهل التوحيد، وحضهم فيه على الأفعال المزلفة لديه،ووعد من عمل فيه خيرا بمضاعفة الجزاء عليه، فليعتمد العمل بما تضمنه هذا المنشور، وحطيطة أجرة شهر رمضان عن جميع سكان الربع المذكور لاستقبال التاريخ المقدم منسوبا ذلك إلى القرب الصالحة والتجارة الرابحة، ويفسح في جميع الدواوين حجة بمودعه، وليخلد بالمسجد الجامع العتيق بمدينة مصر، منعا لمن يروم التأويل فيه، أو نقض شيء من وضعه، إن شاء الله ».

فلما قرىء هذا المنشور ضج العامة بالدعاء ونظم فيه عدة من الشعراء.

وجرى الرسم في وصول كسوة العيد، وهي العدة الكثيرة، وتفريقها على العادة، وعمل الختم في آخر الشهر بالقصر والجوامع والمساجد، وحصل الاهتمام بالعيد، وركب الخليفة إلى المصلى على العادة، وصلى بالناس صلاة العيد، وخطب، وحضر السماط.

وجرى الحال في يوم عاشوراء، وفي المولد الآمري، على المألوف.

فيه كان المولد العيسوي، ففرق ماجرت به العادة من الجامات

القاهرية والجامات السميذ، وقرابات الجلاب وطيافير الزلابية، والبوري، على أصحاب الرسوم، وعمل في شهر ربيع الأول المولد الكريم وفرق المال على الرسم.

وفيها وصل رسول الأمير تاج الخلافة أبي منصور حسن بن علي بن يحيى بن تميم بن معز بن باديس، صاحب المهدية، يخبر بانحيازه للدولة، وأن رجار بن رجار صاحب صقلية تواصلت أذيته، وقد استعد لمحاربته، وسأل أن يسير لرجار يمنعه من ذلك، فسير إليه مصطنع الدولة علي بن أحمد بن زين الخد، فأصلح بينهما.

وفيها نقل المأمون الرصد من الجبل المطل على راشدة إلى علو باب النصر بالقاهرة.

وفيها توفي ولي الدولة أبو البركات بن عبد الحقيق داعي الدعاة، فاستقر عوضه أبو محمد حسن بن آدم، وكان يدعى بالقاضي لأبوته وسنه واشتهاره بالعلم، فبعث الآمر بأحكام الله إلى الوزير المأمون أن يستخدم أبا الفخر صالحا، فذكر المأمون أن أكثر المجالس التي كانت تعمل في أيام النعمان بخط أبيه، وأن أبا الفخر حدث السن ولايماثل المذكور في العلم، وأضيف إليه الخطابة بالجامع الأزهر مع خزانة الكتب.

وورد الخبر بأن الفرنج افتدوا بغدوين رويس الملك بثمانين ألف دينار وثلاثين أسيرا من المسلمين، وكان صاحب حلب قد أسره في وقعة له مع الفرنج.

وعمل ماجرى به الرسم في مواسم السنة.

وفيها جرت عمارة سور الإسكندرية.

وفيها حمل إلى عسقلان ثلاثة وعشرون ألفا وستمائة وأحد وثلاثون إردبا من الغلال.

سنة ثمان عشرة وخمسمائة

فيها ملك الفرنج مدينة صور، واستمرت بأيديهم حتى زالت الدولة الفاطمية، وكان أخذهم إياها بعد محاصرتها مدة، وتقاصر المأمون عن نجدتهم، وأعانهم طغتكين صاحب دمشق ووصل إلى بانياس وراسل الفرنج، فاستقر الأمر على أن الفرنج تستولي عليها بالأمان، فخرج أهلها بما خف حمله، وتفرقوا في البلاد، وكان تملكهم لها في يوم الاثنين ثالث عشري جمادى الآخرة.

وفيها أمر ببناء دار واسعة ليتفرج الناس فيها عند كسر خليج القاهرة بالكراء، وذلك أن الناس عند كسر الخليج[٨١] كانوا يصنعون أخشابا متراكبة بعضها على بعض، يجلسون فوقها للتفرج يوم كسر الخليج، ولم يكن هناك غير دار الأمير أبي عبد الله محمد بن المستنصر ودار ابن معشر، ولم تزل هذه الآدر الثلاثة إلى أن احترقت في نوبة شاور.

فيها مات بألَموت الحسن بن صباح كبير الاسماعيلية، وقد تقدم أنه ورد مصر في أيام المستنصر وسار إلى المشرق بدعوته، واستولى على قلعة ألموت واعتقد إمامه نزار بن المستنصر، وأنكر إمامة المستعلي وإمامة الآمر، وانتدب عدة لقتل الأفضل ابن أمير الجيوش فلما تقلد المأمون البطائحي وزارة الآمر بعد قتل الأفضل بلغه أن ابن صباح والباطنية فرحوا بموت الأفضل، وأنهم تطاولوا لقتل الآمر والمأمون وأنهم بعثوا طائفة لأصحابهم بمصر بأموال، فتقدم المأمون إلى والي عسقلان بصرفه

وإقامة غيره، وأمره بعرض أرباب الخدم بها، وألا يترك فيها إلا من هو معروف من أهل البلاد، وأكد عليه في الاجتهاد والكشف عن أحوال الواصلين من التجار وغيرهم، وأنه لايثق بما يذكرونه، من أسمائهم وكناهم وبلادهم، بل يكشف من بعضهم عن بعض ويفرق بينهم ويبالغ في الاستقصاء، ومن يصل ممن لم تجر عادته بالمجيء إلى البلاد فليعوقه بالثغر ويطالع بحاله ومامعه من البضائع، ولايمكن جمالا من دخول مصر إلا أن يكون معروفا مترددا إلى البلاد، ولايسير قافلة إلا بعد أن يتقدم كتابه إلى الديوان بعدة من فيها وأسمائهم وأسماء غلمانهم وأسماء الجمالين وذكر اصناف البضائع، ليقابل بها في مدينة بلبيس وعند وصولهم إلى الباب، وأنه يكرم التجار ويكف الأذى والضرر عنهم.

ثم تقدم المأمون إلى والي مصر ووالي القاهرة بأن يصقعا البلدين شارعا شارعا وحارة حارة وزقاقا زقاقا وخطا خطا، ويكتباأسماءسكانها، ولايمكنا أحدا من النقلة من منزل إلى منزل حتى يستأذناه ويخرج أمره، بما يعتمد في ذلك، فمضيا لذلك، وحررا الأوراق بأسماء جميع سكان القاهرة ومصر وذكر خططهما، والتعريف بكنية كل واحد وشهرته وصناعته وبلده، ومن يصل إلى كل خط وحارة من الغرباء.

فلما عرف ذلك المأمون انتدب نساء من أهل الخبرة والمعرفة للدخول إلى جميع المساكن والاطلاع على أحوال ساكنيها الباطنية ومطالعته بجميع مايشاهدنه فيها، فكانت أحوال كافة الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين أجناسهم من ساكني مصر والقاهرة تعرض عليه، ولايكاد يخفى عنه منها شيء البتة، فامتنع لذلك الباطنية مما كانوا قد عزموا عليه من الفتك بالآمر والمأمون لكفهم عن دخول البلد

ثم إنه مع ذلك أركب العسكرية وفرقهم في جهات البلدين، وأمرهم بالقبض على جماعة عينهم، فقبض على جماعة كثيرة، منهم رجل كان

يقرىء أولاد الخليفة الآمر، ومنهم رسل كان ابن صباح قد سيرهم بمال لينفق على من بمصر ممن يرى رأيهم، فكان هذا معدودا من عظيم الحزم، وقوة التدبير، ومع ذلك كان له القصاد والجواسيس وأصحاب الخبر في كل قطر، فإذا خرج الباطني من قلاع ألموت لاتزال أخباره ترد عليه شيئا بعد شيء منذ يخرج من مكانه حتى يرد بلبيس، فيسير إليه من يقبض عليه في مكانه الذي نزل فيه ويأتيه به فيقتله، وصار من أجل ذلك وبسببه يرد عليه أخبار كل جليل وحقير من سائر مملكته، حتى كان يرى ويسمع كل مايتفق في ليل أو نهار، وامتنع من الباطنية إلى أن مات رئيسهم الحسن بن صباح بعدما ملك من الشام جبل عاملة، وحصن العليقة والكهف،ومصيات، والخوابي، وحصن الأكمة، وقلعة العيدين، ثم امتدت مملكته بعد موته إلى حد شرقي أذربيجان، وبحر طبرستان، وجرجان.

سنة تسع عشرة وخمسمائة

فيها قبض الخليفة الآمر على وزيره المأمون في ليلة السبت لأربع خلون من شهر رمضان، وقبض على إخوته الخمسة مع ثلاثين رجلا من أهله وخواصه، واعتقله، فوجد له سبعون سرجا من ذهب مرصع، ومائتا صندوق مملوءة كسوة بدنه، ووجد لأخيه المؤتمن أربعون سرجا بحلي ذهب وثلاثمائة صندوق فيها كسوة بدنه، ومائتا سلة مابين بلور محكم وصيني لايقدر على مثلها، ومائة برنية مملوءة كافور قنصوري، ومائة سفط مملوءة عودا، ومن ملابس النساء مالايحد،حمل جميع ذلك إلى القصر، وصلبه مع إخوته في سنة اثنتين وعشرين.

ويقال إن سبب القبض عليه أنه بعث إلى الأمير جعفر بن المستعلي، أخي الآمر، يغريه بقتل أخيه الخليفة ووعده أنه يعتمد مكانه في الخلافة، فلما تقرر ذلك بينهما بلغ الشيخ الأجل، أبا الحسن علي بن أبي أسامة،

كاتب الدست الخبر، وكان خصيصا بالآمر قريبا منه، وكان المأمون يؤذيه كثيرا، فبلغ الخليفة الحال، وبلغه أيضا أنه بعث نجيب الدولة أبا الحسن إلى اليمن، وأمره أن يضرب السكة ويكتب عليها: الإمام المختار محمد ابن نزار.

ويقال إنه سم مبضعا ودفعه لفصاد الخليفة، فأعلم الفصاد الخليفة بالمبضع.

ومولده في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، وقيل في سنة تسع، وكان من ذوي الآراء والمعرفة التامة بتدبير الدول، كريما واسع الصدر، سفاكا للدماء، شديد التحرز، كثير التطلع إلى أحوال الناس من الجند والعامة، فكثر الواشون والسعاة بالناس في أيامه.

ويقال إن أباه كان من جواسيس الأفضل بالعراق، وأنه مات ولم يخلف شيئا، فتزوجت أمه وتركته فقيرا، فاتصل بإنسان يعلم البناء بمصر، ثم صار يحمل الأمتعة بالسوق بمصر، وأنه دخل مع الحمالين يوما إلى دار الأفضل فرآه خفيفا رشيقا حسن الحركة حلو الكلام، فأعجب به، فاستخدمه مع الفراشين بعد ماعرف بأنه ابن فلان، فلم يزل يتقدم عنده حتى كبرت منزلته، وعلت درجته.

وهذا ليس بصحيح فإنه من أخبار المشارقة، وقد تقدم أن أباه مات في زمن الأفضل بعد ماترقت أحوال ولده، وأنه كان ممن يعد من أماثل أهل الدولة، ورثي بعدة قصائد، وتقدم أن المأمون كان ممن يخدم المستنصر، وأنه الذي لقبه بالمأمون، على أن المشارقة زادوا في التشنيع وذكروا أنه كان يرش الماء بين القصرين، وكل ذلك غير صحيح.

وكان المأمون شديد المهابة في النفوس، وعنده فطنة تامة، وتحرز،

وبحث عن أخبار الناس وأحوالهم، حتى إنه لايتحدث أحد من سكان القاهرة ومصر بحديث في ليل أو نهار إلا ويبيت خبره عند المأمون، ولاسيما أخبار الولاة وعمالهم، ومشت في أيامه أحوال البلاد وعمرت، وساس الرعايا والأجناد أحسن سياسة، إلا أنه اتهم بأنه هو أقام أولئك الذين قتلوا الأفضل وأعدهم له وأمرهم بقتله ليجعل له بذلك يدا عند الخليفة الآمر، ولأنه كان يخاف أن يموت الأفضل فيلقى من الآمر مايكرهه لأنه كان أكبر الناس منزلة عند الأفضل ومتحكما في جميع أموره، وكان مع ذلك محببا إلى الناس لكثرة مايقضيه من حوائجهم ويتقرب به من الإحسان إليهم، ويأخذ نفسه بالتدبير الجيد والسيرة الحسنة، بحيث لو قدر موته في حياة الأفضل لزار الناس قبره تبركا به.

واتهم أيضا بأنه هو الذي قتل أولاد الأفضل، وأولاد أخيه الأوحد، وأولاد أخيه المظفر، وكانوا نحو مائة ذكر مابين كبير وصغير، فقتلوا بأجمعهم، ولم يبق منهم سوى صغير نحيف يسمى أحمد أبا علي، ويلقب بكتيفات، فيقال إنه احتقره لما كان يرى فيه من العي والانقطاع، فكان منه مايأتي خبره إن شاء الله تعالى.

واتهم أيضا بقتل الأمير حسام الملك أفتكين، صاحب الباب، في أيام الأفضل لتخوفه منه، وذلك أن حسام الملك دخل مرة على الآمر للسلام، فلما خرج قال الآمر: والله إنك لأمير حسن، فإنه كان جميلا تام القامة وفيه عجب وتيه، فبلغ ذلك المأمون فقامت قيامته وأخذ في العمل عليه حتى أخرجه في العساكر التي يقال إن عدتها عشرون ألفا، فكان من خبره على عسقلان مع الفرنج ماكان، وقتل من أصحابه يومئذ مايزيد على عشرة آلاف، وعاد حسام الملك فبعثه إلى الإسكندرية ودس عليه من قتله.

قال ابن الطوير: ولما دفن الأفضل استعمل الآمر هذا الرجل، وكان

يخاطب بالقائد حين خدمة الأفضل في الوساطة دون الوزارة، ونعته بجلال الاسلام واستمر على ذلك، ثم كمل له الوزارة وخلع عليه خلعة الوزارة إلا الطيلسان المقور، فباشرها، وكان متيقظا قد حذق الأمور ودبرها من صحبة الأفضل وطول خدمته إياه، وكان بالدار التي بالسيوفيين بالقاهرة، وهي اليوم مدرسة للحنفية، وأخذ يصب على قال الأفضل مع الآمر، فصار يتقلب على الآمر في واحدة بعد واحدة من الجفاء الإقدام، والآمر يملي له ويحتمله، حتى استوحش كل منهما من الآخر.

وكان له أخ ينعت بالمؤتمن أبي تراب حيدرة، فرأى من الرأي أن يولى أخاه جانبا عظيما من ديار مصر، ويجعل معه عسكر النجدة ردء إذا قصده الخليفة بضرر، فإنه مادام أخوه يكون حاميا له، فيكون هو من داخل وأخوه من خارج، وجرد معه مائة فارس من شدة الأجناد وكبرائهم، وأضاف إليهم أمثالهم، مثل: علي بن السلار، وتاج الملوك قايماز، وسيف الملك الجمل، ودري الحرون، وحسام الملك بسيل، وكل واحد من هؤلاء جيش بمفرده، والخليفة يعلم ذلك ولايرده عليه، وزاد في معناه حتى قيل إن الخليفة اطلع على أنه ادعى الخلافة، وأنه من ولد نزار من جارية خرجت من القصر وهي حامل عندما خرج نزار إلى الإسكندرية فانزعج الخليفة لذلك، ثم إنه سير إلى اليمن الموفق في الدين علي بن نجيب الدولة[٨٢] وكان من أهل الأدب فصيحا داهي، ليحقق لنسبه هناك ويدعو الناس إلى بيعته، فلما قيل للآمر هذا، ماشك فيه، وأخذ يتحيل في الإيقاع به بعد عود أخيه من ولايات الاسكندرية والغربية والبحيرة والجزيرتين[٨٣] والدقهلية والمرتاحي[٨٤] فاختلق الآمر قضية يلتمسها من الاسكندرية وهو مقيم بها، فسير أستاذا من ثقاته، ظاهره فيما ندبه إليه وباطنه في العمل على المأمون وأخيه، وقال له:« أحرص على اجتماعك بعلي بن السلار في المسايرة وسلم عليه عنا، وقل

له: إننا مازلنا نلتفت إليه وندخره لمهماتنا ونتحقق فيه الموافاة لنا، وإنا بحمد الله قادرون على المكافأة بالخير أكثر من غيرنا، وقد تلونت أحوال المأمون وبالغ في عقوقنا بأشياء لايتسع لنا ذكرنا ومقصودنا أن تكتم عنا مانقول لك».

فلما بلغه الأستاذ ذلك عن الآمر قال:«السمع والطاعة لمولانا، وأنا مملوكه وباذل نفسي في خدمته» فقال الأستاذ:«هكذا والله قال عنك» قال ابن السلار:« فما يأمر به»؟ قال:«تحدث رفقتك بأجمعهم في الانفصال عن المؤتمن، أنت ومن تثق به».

فلما تقرر ذلك اتفق علي بن السلار هو، وقايماز، ودري الحرون، وكانوا أمراء الجماعة فتفرقوا عنه وتبعهم الباقون، فانفرد المؤتمن واستوحش وكاتب أخاه المأمون بذلك، فما اتسع له أن يتتبع الأمراء، ولاينكر عليهم ليرجعوا إلى أخيه، لعلمه بتغير الخليفة عليه، مخافة أن يفسد أمره ظاهرا وباطنا، فحضر إلى الخليفة يوم سلام، على عادة الوزراء، وتقدم وقال:« يامولانا، صلوات الله عليك، وصل كتاب أخي يتذمم من طول مقامه خارج القاهرة وأسفه على مايفوته من خدمة مولانا بالمباشرة، ويسأل الفسحة له في العود إلى بابه الكريم» فقال:« مرحبا وأهلا، وهذا كان رأينا، ونحن مشتاقون إليه، وإنما قصدنا رضاك فيما رتبته له، يقدم على بركة الله»، فكوتب عن الخليفة بالعود وأن يرتب في ولاياته من يرضاه فامتثل ذلك.

ودخل القاهرة، فجلس الخليفة له في غير وقت الجلوس، فمثل بين يديه، وأكرمه وأدناه، وخلع عليه بالتشريف المفخم.

فلما دخل شهر رمضان، وفيه السماط كل ليلة بقاعة الذهب، ويحضر الوزير وإخوته وأصحابه، فحضر المأمون وأخوه المؤتمن السماط أول ليلة،

فأكرمهما الآمر بما أخرجه لهما مما كانت يده فيه، وأرسل رسالة إلى المؤتمن ليستأنس بحضوره السماط مع أخيه، فلم يتسع لهما مع هذه المكارمة الانقطاع.

وحضرا ثاني ليلة فزاد في إكرامهما، ثم أمر بأن يدخل المأمون لمؤاكلته خاصة دون أخيه، فدخل إليه، ولم يتقدمه أحد من الوزراء بمثل ذلك، يعني بهذه المنزلة، وخرج هو وأخوه وأكد عليهما ألا ينقطعا، وخلع عليهما من داخل الدار من الثياب الدارية، ثم حضرا ثالث ليلة، فاستدعي المأمون إلى الخليفة، فلما جلس معه على المائدة قال قد جفونا المؤتمن، واستدعاه، فدخل، وصارا في قبضته، وكان قد رتب لهما من يأخذهما، فعند خروجهما للمضي قبض عليهما واعتقلهما عنده في خزانة، وسير بالحوطة على دورهما، ثم أمر بإحضار الشيخ الأجل أبي الحسن بن أبي أسامة، كاتب الدست، لينشىء شيئا في معناهما يقرؤه على المنبر باكرا، فوجد الشيخ أبو الحسن بمصر لعيادة مريض، فتقدم إلى والي القاهرة في الليل بأن يمضي إلى مصر لإحضاره، فظن والي القاهرة أنه طلب لغير ذلك، وكان يقال له سعد الدولة الأحدب، فمضى إليه وأزعجه من مكانه، وسبه أقبح سب، وأراد إحضاره إلى القاهرة ماشيا، فأحضره إلى الخليفة وهو ميت لاحراك به،فقال له:ماهذا؟ فأخبره بقضيته مع الوالي، فغضب على الوالي وأمر بخلع أخفافه من رجليه وصفعه بهما، حتى تقطعا على قفاه، وصرفه من الولاية، وأطلع الشيخ أبا الحسن على قضية المأمون وأخيه، فقال يامولانا: هما نشو أيامك ومماليك دولتك، فقال لبعض الأستاذين خذ هذا الشيخ وصوبه إلى المذكورين لينظرهما في اعتقالهما وينقطع رجاؤه منهما، فأدخله إليهما، فرآهما مكبلين في الحديد، وعليهما احتياط عظيم، فأنشأ للوقت سجلا كان من استفتاحه:

«أما بعد، فإن محمد بن فاتك استنجح فما نجح، واستصلح فما

صلح، وجهل رفع قدره فغدا لهبوط، وقابل الإحسان إليه بدواعي القنوط» وكل ذلك في تلك الليلة.

فلما أصبح الصباح جلس الخليفة في الشباك بالإيوان، ونصب كرسي الدعوة أمامه، وطلع قاضي القضاة عليه وقرأه بعد اجتماع الأمراء وأرباب الرتب والعوام، فلم ينتطح فيها عنزان.

ويقال إن الخليفة كان يقول: أعظم ذنوبه عندي ماجرى منه في حق صور وإخراجها من يد الاسلام إلى الكفر.

وبقيا في الاعتقال، هما وأميران اتهما، في خزانة البنود، وسير لإحضار الذي كان أنفذه المأمون إلى اليمن ليقتلهم جميعا، وتفرغ الآمر لنفسه، ولم يبق له ضد ولامداج، وبقي بغير وزير(٨٥).

وأقيم صاحبا ديوان الاستخراج(٨٦) بما يجب من زكاة ومكس، أحدهما مسلم يقال له جعفر بن عبد المنعم بن أبي قيراط والآخر سامري يقال له أبو يعقوب ابراهيم، وأقيم معهما مستوف لهاتين المعاملتين وكان راهبا، فكانوا يستخرجون ذلك من أربابه، ويدخل صاحبا الديوان إلى الآمر في كل وقت ومعهما المصحف والتوراة فيحلفان له أنهما لايتعرضان إلا لمن يجب عليه لبيت المال حق، فيحملهما في ذلك على الصدق، وربما اشتطا على الناس وزيدا عليهم مالايجب زيادته، فتأذى بسببهما جماعة، والآمر لايطلع على ذلك ولاأشار به، واستمرا على ذلك مديدة.

سنة عشرين وخمسمائة

فيها جهز الآمر المنتضى بن مسافر الغنوي بخلع سنية وتحف مصرية وثلاثين ألف دينار للأمير البرسقي، صاحب الموصل، فلما كان في أثناء الطريق سمع بموته، فرجع بما معه إلى الآمر.

وفيها قدم الأمير الرئيس حمدان بن عبد الرحيم، مصنف«سيرة الفرنج الخارجين على بلاد الاسلام في هذه السنين» برسالة من صاحب حلب.

وفي شوال كان بدء أمر الراهب، وذلك أن راهبا من النصارى، يعرف بأبي نجاح بن متى كتب إلى الآمر رقعة في الكتاب النصارى من الأقباط يذكر أنهم قد أخذوا أموال الدولة واستولوا عليها، وضمن أنه يحقق في جهاتهم مايملأ بيوت الأموال، فتقدم الخليفة بأن يمكن من الدواوين ويساعد على مايخرجه من الحسبانات، ولقب بالأب القديس الروحاني النفيس أبي الآباء سيد الرؤساء مقدم دين النصرانية، وسيد البطريركية، ثالث عشر الحواريين.

وكان الآمر لما انفرد بالأمر بعد القبض على وزيره المأمون، وبقي بغير وزير دانت له الدنيا، وكان معظما كثير الجود إلى الحد الذي لامزيد عليه، فكثر الخير في تلك الأيام، وفرح الناس بالفوائد، وتردد المسافرون والتجار، وجلبت البضائع، وزاد الحاصل في الخزائن من كل صنف مضافا إلى ماكان فيها، وحسنت السيرة في الرعية، وأباح للناس والجنود ماكان الأفضل حظره عليهم من الملبوس والتجمل، فما برح الناس في خيرات دارة ونعم متزايدة إلى أن تمكن الراهب من الدواوين واشتد في مطالبة النصارى وحقق في جهاتهم الأموال، وحملها أولا فأولا، وكان قد حصل لهم في أيام الأفضل والمأمون مايزيد عن الوصف، فلما تمكن الراهب من النصارى واستطاب ماتحصل منهم ابتدأ يعمل في المسلمين معاملي الديوان من المشارفين والضمناء والعمال.

فيها ركب الآمر لينظر جوسق البغدادي أبي الحسن علي بن محمد بن سعدون بالقرافة، فإنه كان من أحسن جواسق القرافة، وأفخرها بناء، فلما قرب منه سقط عن فرسه إلى الأرض فهنيء بالسلامة، وقيل في ذلك عدة أشعار.

سنة إحدى وعشرين وخمسمائة

فيها أحضر الموفق في الدين أبو الحسن علي بن ابراهيم بن نجيب الدولة، داعي اليمن، الذي سيره الوزير المأمون بن البطائحي، فدخل في يوم عاشوراء على جمل بطرطور، ومعه مشاعلية تصكه بلا كلل وخلفه قرد يصفعه، وهو يقول بقوة نفس: والله ماباليت ولا ألتفت، فأدخل خزانة البنود وسجن مع المأمون.

فيها كثرت مصادرة الراهب للكتاب والعمال، وتسلسل الأمر إلى التجار وأرباب الأموال، وندب معه مقداد والي مصر وسعد الدولة والي القاهرة للشد منه، فتنكد الناس وخرج كثير من أهل مصر إلى الآفاق، وأخذ الراهب يحسن للآمر أن يحمل إليه مال الأيتام من مودع الحكم.

وفيها مات قاضي القضاة جلال الملك تاج الأحكام، أبو الحجاج يوسف بن أيوب بن اسماعيل المغربي الأندلسي، وكان أولا قد أقرأ المؤتمن أخا المأمون القرآن والنحو، فولاه قضاء الغربية، ثم نقل منها إلى قضاء القضاة بعد واقعة ابن الرسعني بوساطة المؤتمن، واستقر بعد وفاته في قضاء القضاة أبو عبد الله محمد بن هبة الله بن الميسر القيسراني.

وكان أبو الحجاج عاقلا، عرض عليه الآمر أن يلي الدواوين مضافا إلى مايتولاه من قضاء القضاة والمظالم، فاستشار في ذلك بعض أصحابه فأشار بالقبول، فقال: إني لاأحسن صنعة الكتابة، فقال له: تجعل بين

يديك من يوضح لك طرق التدبير ويدللك على سر الصناعة فقال: ألا ترى إلا أني قد رضيت أن أكون من الأسماء النواقص التي لاتتم إلا بصلة وعائد، واستحضرت من يدلني على ماأجهل، فكيف أصنع بين يدي السلطان؟ لقد حكمت إذا على نفسي بحكم حيف وأوردتها خطة خسف. رحمه الله.

سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة

فيها وصلت رأس بهرام الباطني، وكان طغتكين أتابك، الملقب ظهير الدين، قد وهب له بانياس خوفا من شره، فأفسد جماعة بالشام، وجرت له خطوب آلت إلى قتله، وحملت رأسه إلى الآمر.

وفيها رتب قاضي القضاة أبا عبد الله محمد بن ميسر مشارفا على ثقة الدولة ابن أبي الرداد في قياس الماء وعمارة المقياس، وعمل مصالحه، فاستمر إلى أن قتل ابن ميسر ثم بطل، فلم ينظر أحد في هذه المشارفة.

وفي رجب عمل للآمر في الخاقانية[٨٨]، وكانت من خاص الخليفة، قصر من ورد، فسار إليها وحده بضيافة عظيمة، فلما استقر هناك خرج إليه أمير يقال له حسام الملك— أحد الأمراء الذين كانوا مع المؤتمن، أخي المأمون، في سفره في البلاد التي كان يتولاها وتخاذل مع ابن السلار عنه— وهو لابس لأمة حربه، والتمس المثول بين يدي الخليفة، فاستثقل ماجاء به في ذلك الوقت لأنه مناف لمافيه الخليفة من الراحة والنزهة، فمنع من ذلك وصد عنه، فقال لجماعة من حواشي الخليفة:

أنتم منافقون على الخليفة إن لم أصل إليه وهو يطالبكم بذلك ويعاقبكم عليه، فأطلعوا الخليفة على أمره، فأمر بإحضاره فقال: يامولانا، لمن تركت أعداءك —يعني المأمون وأخاه— هذا والعهد قريب، أأمنت الغدر؟ فما أجابه إلا وهو على ظهور الرهاويج من الخيل[٨٩]، فلم تمض ساعة إلا وهو بالقصر يمضي إلى مكان إعتقال المأمون وأخيه، فوجدهما على حالهما، فزادهما وثاقا وحراسة.

فلما كان في ليلة العشرين منه قتل المأمون وصالح بن الضيف، وكان من نشو المأمون وقد سجن معه، وعلي بن ابراهيم بن نجيب الدولة،المحضر من اليمن، وأخرجوا إلى سقاية ريدان[٩٠] في الرمل، قبالة البستان الكبير خارج باب الفتوح، فصلب أبدانهم بغير رؤوس وفي صدر كل واحد رقعة فيها اسمه، فبلغ الأمر الناس فشكوا فيهم، وقالوا: هم غير المذكورين، فأمر بإخراج رؤوسهم وأقيمت على أبدانهم.

فيها كانت ولاية ابن ميسر القضاء في ذي الحجة على ماذكر بعضهم ، وقيل بل كانت كما تقدم، ولقب بثقة الدولة القاضي الأمين سناء الملك، شرف الأحكام، قاضي القضاة، عمدة أمير المؤمنين، أبي عبد الله محمد ابن القاضي أبي الفرج هبة الله بن ميسر، فلازم الانتصاب والجلوس، واعتمد التثبت في الأحكام، وعدل جماعة، فبلغت عدة الشهود في أيامه مائة وعشرين شاهدا، وكانوا دون الثلاثين.

ثم وردت إليه المظالم، فاستوضح أحوال المعتقلين وطالع بهم الآمر، وكان فيهم عدة قد يئسوا من الفرج، فاستأذن الخليفة وأفرج عنهم، وتكلم مع الآمر في أمر التجار ومانزل بهم من المصادرات، فأمر الخليفة بكتابة منشورهم في معناهم قرىء على المنابر.

فيها كثرت وقائع أهل السر على الناس، وتقرب كثير من الكتاب

الظلمة بعورات الناس إلى الخليفة، فاشتدت مطالبات الناس بالأموال، وقبل قول كل رافع شيئا على أحد، وأخذ الناس بما رموا به، وضمن عدة من الناس اشياء لم تجر عادة بضمانها، وأحدثت رسوم لم تكن فيما تقدم وذلك أنهم لم يقدروا على تصريح القول بالمصادرة، فعملوا ماذكر، فحصلت الشناعة، وخرج من بالبلد من التجار.

وكثرت مصادرات القاطنين بمصر والقاهرة، وعظم قدر ماحمل من أموال هذه الجهات، فاتسع عطاء الخليفة حتى وهب يوما لغلامه بزغش، المنعوت بالعادل ثمانين ألف دينار، ثم سأله بعد مدة يسيرة عما فعله فيما وهبه، فقال: يامولانا تصدقت ووهبت أكثر فأعجب ذلك الآمر، وفرح، وشكره على مافعله، ووهب مرة لغلامه هزاز الملك جوامرد، المنعوت بالأفضل، مثل ذلك، وكانا أخص غلمانه وأقربهم منه، وأشرفهم عنده منزلة، وكانا أسمح خلق الله، وكان الناس في أيامهما لايوجد فيهم من يشكو الفقر، لابمصر ولابالقاهرة، فإن هزار الملوك كانت صدقته في كل يوم جمعة راتبا قد قرره بالقرافة أربعة آلاف درهم في ألف كاغدة، على يد الثقة ابن الصعيدي وغزال الوكيل، وكانت عطاياه من يده لاتنقص عن عشرة دنانير أبدا، ولايخلوا ركوبه إلى القصر وعوده من أحد يقف له ويطلب منه، وكان بزغش يعطي الجمل الكبار التي يغني بها الطالب، من المائة دينار إلى المائتين وأكثر.

وبلغ علم التي يقال لها جمعة، مكنون الآمرية، أن الآمر سيدها قد وهب لكل من غلاميه المذكورين ثمانين ألف دينار، وكان الآمر يحبها وأصدقها أربعة عشر ألف دينار، وولدت منه ابنة سماها ست القصور، فلما دخل عليها عشية اليوم الذي وهبهما فيه هذا المال قامت وأغلقت عليها مقصورتها، وقالت: ماتدخل إلي أو تهب لي ماوهبت لكل منهما، فقال: الساعة، وأحضر الفراشين، وحمل كل عشرة كيسا فيه عشرة آلاف

دينار عينا، فلما صار إليها هذا المال، ومبلغه مائتا ألف دينار ذهبا، فتحت الباب له ودخل(٩١).

سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة

فيها عم البلاء بمصر جميع الرؤساء والقضاة والكتاب والسوقة من الراهب، بحيث لم يبق أحد إلا وناله منه مكروه، إما من ضرب أو نهب أو أخذ مال، وكان يجلس في قاعة الخطابة من جامع عمرو بن العاص، ويستدعي الناس للمصادرة، فطلب في بعض الأيام رجلا يعرف بابن العُرس من العدول المميزين المبجلين في الناس فأهانه وأخرق به، فخرج إلى الجامع في يوم جمعة وقام على رجليه وقال: ياأهل مصر، انظروا عدل مولانا الآمر في تمكينه النصراني من المسلمين، فارتج الناس لكلامه وكادت تكون فتنة، فاتصل ذلك بخواص الخليفة، فأبلغوه إياه وخوفوه عاقبة ذلك، وطالعوه بما حل بالخلق.

وكان الراهب قد أخذ من شخص خادم يقال له جدّ نحو سبعين ألف دينار بخرج من مائة ألف دينار، فصار يشكو، وكان كثير البضائع والتجارات والمقارضين، فتظلم واشتهر أمره إلى أن بلغ خبره إلى أستاذ من أستاذي القصر له من العمر نحو مائة وعشرين سنة، يقال له لامع —وكان قد انقطع في منزله بالقصر بعد ماحج غير مرة، وأنشأ جلبة(٩٢) بعيذاب يقال لها اللامعية تحمل الحاج— فاتفق جواز الآمر على مكانه فسأل عنه، فقيل له: إنه لايستطيع النهوض إلى خدمتك، فدخل إليه وسأله عن حاله، فقال: شغلي بسمعة مولانا أشد علي من نفسي، فقال له الآمر: لأي شيء؟ فقال: ياأمير المؤمنين، إن الناس قد تم عليهم من الشدة مالا أحسن أصفه وربما نسب ذلك إليك، وشرح له أمر الراهب ابن أبي نجاح وصاحبي الديوان جعفر بن عبد المنعم المعروف بابن أبي قيراط، وأبي يعقوب ابراهيم السامري الكاتب، وماأخذوه من جد

الخادم، فحلف الآمر إنه ماعلم أنهم بلغوا بالناس إلى هذا المبلغ، وأنه يستدعي صاحبي الديوان في كل وقت ويحلفهما على المصحف وعلى التوراة، وأن الراهب لم يجعل إلا مستوفيا لما يستخرج من المال وليس له معهما حديث ألبتة، فقال له الخادم: يا أمير المؤمنين، إنهم قد اتفقوا على أذى الناس، وقد جعلك الله خليفة في الأرض واسترعاك على عباده، وكل راع مسؤول عن رعيته، فشق على الخليفة، وعمل فيه كلام هذا الأستاذ، وخرج، فما بات حتى صرف صاحبي الديوان واعتقلهما، ليستعيد منهما ماأخذاه للناس ظلما، واستدعى الراهب، وكان بحضرته رجل من الأشراف، فلما حضر الراهب أنشد الشريف:

إن الذي شرفت من أجله
يزعم هذا أنه كاذب

فقال الآمر للراهب: ياراهب، ماذا تقول؟ فسكت فأمر حينئذ والي مصر بأخذه إلى الشرطة وضربه بالنعال حتى يموت، فمضى به إلى شرطة مصر، ومازال يضرب بالنعال حتى مات، فجر بكعبه إلى عند كرسي الجسر[٩٣] مسحوبا، وسمر على لوح، وطرح في بحر النيل، فكان كلما وصل إلى ساحل من سواحل مصر وهو منحدر دفعوه إلى البحر، فلم يزل حتى خرج إلى البحر الملح، واشتهر ذكره، وسارت الركبان بهلاكه.

وكان هذا الراهب أولا من أشمون طناح[٩٤] وترهب على يد أبي إسحاق بن أبي اليمن، وزير ابن عبد المسيح متولي ديوان أسفل الأرض، ثم قدم إلى القاهرة واتصل بخدمة ولي الدولة أبي البركات يحنا بن أبي الليث، كاتب المجلس، ولما قتل الوزير المأمون اتصل بالخليفة الآمر، وبذل له في مصادرة الكتاب النصارى مائة ألف دينار، فأطلق يده فيهم، واسترسل أذاه حتى شملت مضرته كل أحد.

وكان يعمل له في تنيس ودمياط ملابس مخصوصة من الصوف

الأبيض بالذهب، فيلبسها ومن فوقها غفارة[٩٥] ديباج، ويتطيب بعدة مثاقيل مسك في كل يوم فكانت رائحته تشتم من مسافة بعيدة، وكان يركب الحمر الفارهة بالسروج المحلاة بالذهب والفضة، ويجلس بقاعة الخطابة من جامع مصر.

ولما قتل وجد له في مقطع ثلاثمائة طراحة سامان محشوة جددا لم تستعمل، قد رصت إلى قرب السقف، وهذا من نوع واحد، فكيف ماعداه؟.

ولما قتل وعرف الآمر ماكان يعمل في الناس من أنواع الأذى خشي من الله واستحيا من الناس، وكره مساءلة الفقهاء من الاسماعيلية عن ذلك وعن كفارة هذا الذنب لأنه إمام، وشرط الإمام أن يكون معصوما، فسير إلى الفقيه سلطان بن رشا شيخ الفقيه مجلى، وكان خليفة الحكم، مع من يثق به يستفتيه في أمر الراهب ومايكفر عنه، فقال: يرد ماصار إليه من الأموال إلى أربابها، فرد عليه: إنى والله ماأعرفهم ولاأقدر على ذلك، ولكن أعتق الرقاب وأتصدق، فقال الفقيه: الخليفة قادر على أن يعتق ويتصدق ولايتأثر لذلك، ولكن يصوم فإنه عبادة شاقة على مثله، فقال: أصوم الدهر؟، قال: لا، ولكن الصوم الذي وصفه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، صوم يوم وفطر يوم، فقال: لاأقدر على ذلك، فقال: يصوم رجب وشعبان ورمضان، ففعل ذلك، وتخرج في صومه وبره هذه الأشهر من كل ماينكر في الديانة.

سنة أربع وعشرين وخمسمائة

في ربيع الأول ولد للآمر ولد سماه أبا القاسم الطيب، فجعل ولي عهده، وأمر فزينت القاهرة ومصر، وعملت الملاهي في الإيوانات وأبواب القصور، وكسيت العساكر، وزينت القصور، وأخرج الآمر من خزائنه

وذخائره قماشا ومصاغا مابين آلات وأواني من ذهب وفضة وجوهر، فزين بها، وعلق الإيوان جميعه بالستور والسلاح، واستمر الحال على هذا أربعة عشر يوما.

وأحضر الكبش الذي يعق به عن المولود، وعليه جل من ديباج، وفي عنقه قلائد الفضة، فذبح بحضرة الخليفة الآمر، وجيء بالمولود فشرف قاضي القضاة ابن ميسر بحمله، ونثرت الدنانير على رؤوس الناس، ومدت الأسمطة العظيمة بعد ماكتب إلى الفيوم والقليوبية، والشرقية فأحضرت منها الفواكه، وملىء القصر منها ومن غيرها من ملاذ النفوس، وبخر بالعنبر والعود والند حتى امتلأ الجو من دخانه.

فيها تواترت الأخبار بتخويف الآمر من اغتيال النزارية وتحذيره منهم، وإعلامه بأنه قد خرج منهم قوم من المشرق يريدون قتله، فتحرز احترازا كبيراً بحيث إنه كان لايصل أحد من قطر من الأقطار إلا ويفتش ويستقصى عنه، وأقام عدة من ثقاته يتلقون القوافل ليتعرفوا أحوال الواصلين ويكشفوا عنهم كشفا جليا، وكلما اشتد الأمر كثر الخوف، واتصل به أن جماعة من النزارية حصلوا بالقاهرة ومصر، فاحترز وتحيل في قبضهم فلم يقدر لما أراده الله، وفشا في الناس أمرهم، وكانوا عشرة فخافوا أن يظفر بهم، فاجتمعوا في بيت وقالوا إنه قد فشا أمرنا ولانأمن أن يظفر بنا، واشتوروا فقال احدهم: الرأي أن تقتلوا رجلا منكم وتلقوا برأسه بين القصرين لتنظروا إن عرفها الآمر فتتيقنوا أن حلاكم قد ذكرت له، فتعملوا الحيلة في فراركم من مصر، وإن لم يعرفها فتطمئنوا حينئذ وتعرفوا أن القوم في غفلة، فقالوا: مايتسع لنا قتل واحد منا ينقص عددنا ومابذاك أمرنا، فقال: أليس هذا من مصلحتنا ومصلحة من تلزمنا طاعته، وما دللتكم إلا على نفسي، وشرع بسكين فذبح بها نفسه فمات، وأخذوا رأسه ورموها في الليل بين القصرين، وأصبحوا ينظرون مايتفق فلما رئيت الرأس واجتمع الناس عليها لم يقل

أحد أنا أعرفها، فحملت إلى الوالي، فأحضر عرفاء الأسواق على أرباب المعايش وأوقفهم عليها فلم يعرفها أحد، فأحضر أصحاب الأرباع بالحارات، فلم يعرفوها، ففرح النزارية واطمأنوا بالإقامة في مصر لقضاء مرادهم.

وكان الآمر كثير الفرج محبا للهو، فركب في يوم الثلاثاء الرابع من ذي القعدة يريد المضي إلى الهودج، الذي بناه بجزيرة مصر لمحبوبته البدوية، ومن العادة في الركوب أن يشاع في أرباب الخدم بالموكب جهة قصد الخليفة حتى لايتفرقوا عنه، فعلم النزارية أين يقصد فجاءوا إلى الجزيرة المذكورة ودخلوا فرنا قبالة الطالع من الجسر إلى البر، ودفعوا إلى الفران دراهم ليعمل لهم فطيرا بسمن وعسل، فبينما هم في أكله وإذا بالخليفة الآمر قد عبر من كرسي الجسر بمصر وجاز عليه وقد تفرق عنه الركابية ومن يصونه بسبب ضيق الجسر، فلما طلع من آخر الجسر يريد العبور إلى الجزيرة وثبوا عليه وثبة رجل واحد وضربوه بالسكاكين، وواحد منهم صار خلفه على كفل الدابة وضربه عدة ضربات، فأدركهم الناس وقتلوهم، وكانوا تسعة، وحمل الآمر في عشاري إلى اللؤلؤة، وكانت أيام النيل، فمات من يومه، وحمل من اللؤلؤة وهو ميت إلى القصر.

وكان عمره يوم قتل أربعا وثلاثين سنة وتسعة أشهر واثنين وعشرين يوما، ومدة خلافته تسع وعشرون سنة وثمانية أشهر وخمسة عشر يوما، ومازال محكوما عليه حتى قتل الأفضل، فتزايد أمره عما كان عليه أيام الأفضل، فلما قبض على وزيره المأمون استبد بالأمور، وتصرف في سائر أحوال المملكة، وأكثر من الركوب، ورتب لركوبه ثلاثة أيام في كل اسبوع وهي: يوم الجمعة، ويوم السبت، ويوم الثلاثاء، فإذا لم يتهيأ له الركوب في أحد هذه الأيام ركب في يوم غيره، فكان يمضي أبدا في يومي الثلاثاء والسبت إلى النزهة في بستان البعل، والتاج، والخمس وجوه، وقبة

الهواء، من ظاهر القاهرة، أو إلى دار الملك بمصر، أو بالهودج الذي أنشأه بجزيرة مصر التي يقال لها اليوم الروضة.

وكان يتحول في أيام النيل من القصر بخدمه ويسكن في اللؤلؤة المطلة على خليج القاهرة، وكان الناس يوم ركوبه يخرجون من القاهرة ومصر بمعايشهم ويجلسون للنظر إليه، فيكون كيوم العيد، وصار الناس مدة أيامه التي استبد فيها في لهو وعيش رغد لكثرة عطائه وعطاء حواشيه وأستاذيه، لاسيما غلامه بزغش ورفيقه هزار الملوك جوامرد، حتى إنه لايكاد يوجد في مصر والقاهرة من يشكو زمانه لبسطهم الرزق بين الناس وتوسعهم في العطاءثم تنكد عيش الناس بقيام الراهب وكثرة مصادراته، وشره حينئذ الآمر في أخذ أموال الناس، فقبحت سيرته، وكثر ظلمه واغتصابه لأملاك كثيرة من أملاك الناس، مع مافيه من التجرؤ على سفك الدماء وارتكاب المحذورات واستحسان القبائح.

وفي أيامه ملك الفرنج كثيرا من المعاقل والحصون بسواحل البلاد الشامية، فملكت عكا في شعبان سنة سبع وتسعين، وعرقة في رجب سنة اثنتين وخمسمائة، واستولوا على مدينة طرابلس الشام بالسيف في يوم الاثنين لإحدى عشرة خلت من ذي الحجة سنة اثنتين وخمسمائة، وملكوا بانياس وجبيل بالأمان لثمان بقين من ذي الحجة منها، وملكوا قلعة تبنين في سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وتسلموا مدينة صور في سنة ثمان عشرة وخمسمائة.

وكثرت المرافعات في أيامه، واستخدم عدة من الكتاب الظلمة الأشرار، وضمن أشياء لم تجر العادة بتضمينها، وأخذ رسومالم تكن فيما تقدم.

وعمل دكة عليها خركاة في بركة الحبش، وعمر في بركة الحبش مكانا سماه تنيس وموضعا آخر سماه دمياط، وجدد قصر القرافة، وعمل تحته

دكة—مصطبة— للصوفية، فكان يجلس في أعلاه ويرقص أهل الطريقة قدامه، والشمع موقود والمجامر تعبق بالبخور،والأسمطة تمد بكل صنف لذيذ من الأطعمة والحلوى، وفرق في ليلة عند تواجد ابن الجوهري الواعظ وتمزيق رقعته على من حضر وعلى الفقراء ألف نصفية، ونثر عليهم من الطاق ألف دينار تخاطفوها.

وبنى الهودج لمحبوبته العالية البدوية في جزيرة الروضة، ولهذه البدوية وابن مياح، من بني عمها، مع الآمر أحاديث صارت كأحاديث البطال وشبهها قد ذكرتها عند جزيرة الروضة من هذا الكتاب.

وكان المنفق في مطابخة وأسمطته شيء كثير، فكان عدة مايذبح له في كل شهر خمسة آلاف رأس من الضأن خاصة، سوى مايذبح مما سوى ذلك، وثمن الرأس منها ثلاثة دنانير.

وكان أسمر شديد السمرة، يحفظ القرآن، وخطه ضعيفا، وكانت نفسه تحدثه بالسفر إلى الشرق والغارة على بغداد، وأعد لذلك سروجا مجوفة القرابيص، وبطنها بصفائح من قصدير ليحمل فيها الماء، وعمل لها فما فيه صفارة فإذا دعت الحاجة إلى الماء شرب منه الفارس، فكان في كل سرج منها سبعة أرطال من ماء، وعمل عدة من مخالي الخيل من الديباج، وقال في ذلك:

دع اللوم عني، لست مني بموثق
فلا بد لي من صدمة المتحقق
وأسقي جيادي من فرات ودجلة
وأجمع شمل الدين بعد التفرق

ومن شعره أيضا:

أما والذي حجت إلى ركن بيته
جراهيم ركبان مقلدة شهبا

لأقتحمـــــن الحرب حتـــــى يقـــــال لي
ملكـــت زمـــام الحرب، فـــاعتـــزل الحربـــا
وينـــزل روح الله عيســـى بـــن مـــريـــم
فيرضـــى بنـــا صحبـــا ونـــرضـــى بـــه صحبـــا

وكانـت وزارة الأفضل ابن أمير الجيـوش، وكان حـاجرا عليه ليـس له معه أمـر ولانهي، ولانفوذ كلمة إلى أن قتل، ثـم وزر له المأمون محمـد بن فاتـك البطائحـي، فصار له في وزارتـه أمر ونهي، وعـادت الأسمطة على ماكانت عليـه قديما، وكان الأفضل قد نقلها فصـارت تعمل أيام الأعياد والمواسم في دار الملك بمصر حيـث كان يسكن، فلما قتل المأمـون استبد ولم يستوزر أحدا، ودانت له الدنيا.

قضاته: ابن ذكـا النابلسي، ثم ولى نعمة بن بشير،فطلب الإقـالة، فولى بعده الرشيد أبو عبد الله محمد بن قـاسم بن زيد الصقلي، ومات، فاستقر بعده الجليـس نعمة بـن بشير النابلسي مـرة ثانيـة، ثم صرف بـأبي الفتح مسلم بـن الرسعني، وعـزل بأبي الحجاج يـوسف بن أيـوب المغربي، فلما مات استقـر من بعده أبو عبـد الله محمد بن هبـة الله بن ميسر القيسراني، وقتل الآمر وهو قاض.

كتـاب الإنشاء في أيـامـه: سناء الملـك أبـو محمد بـن محمـد الزيـدي الحسيني، والشيخ الأجـل أبو الحسن بن أبي اسامة الحلبـي، والشيخ تاج الرئاسة أبو القاسم ابن الصيرفي، وابن أبي الدم اليهودي.

وكان نقش خاتمه «الإمام الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين».

وفي أيامه نـزع السعر، فبلغ القمح كـل أردب بدينار، وكان النـاس قد ألفوا الـرخاء في أيـام الأفضل والمأمون، وبعـد عهدهـم بالغـلاء ، فقلقوا لذلك.

ومن نوادر الآمر أنه عاشر الخلفاء الفاطميين، وهو العاشر في النسب أيضا، ولم يل عشرة على نسق واحد ليس بينه أخ ولاعم ولاابن عم غير الآمر.

وعرض عليه فصل في التوحيد من جملته:«وهو المحذر بقوارع التهديد، من يوم الوعد والوعيد» فقال: إذا حذر من الوعد كما يحذر من الوعيد، فما الفرق بينهما؟ وأمر أن يقال:« المحذر بقوارع التهديد ومن هول يوم الوعيد» واستدرك في فصل آخر في ذكر علي، رضي الله عنه، قوله:«وهو السابق إلى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإجابته» فقال: إن قوله«السابق» غير مستقيم، لأنه إن أراد التخصيص فذلك غير صحيح، إذ كانت خديجة سبقت إلى الاسلام، والسابق منهم جائز أن يكون واحدا وأن يكون جماعة، والله تعالى يقول:«والسابقون السابقون(٩٧)» وليس في ذلك دليل على تخصيص واحد بالتقدم على الباقين، ثم ذكر مثالا فقال: خيل الحلبة إذا أقبلت منها عشرة لايخرج فيها واحد عن واحد قيل لها«السبق» وقيل لكل واحد منها سابق، وأمر أن يقال :«أول سابق إلى دعوة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وإجابته».

الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد بن الأمير أبي القاسم محمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد

ولد بعسقلان في المحرم سنة سبع، وقيل سنة ثمان، وستين وأربعمائة لما أخرج المستنصر ابنه أبا القاسم مع بقية أولاده في أيام الشدة، فكان يقال له الأمير عبد المجيد العسقلاني، ابن عم مولانا.

ولما قتل النزارية الآمر كان كبار غلمانه العادل بزغش وهزار الملوك جوامرد، وينعت بالأفضل، فعمدا إلى الأمير أبي الميمون عبد المجيد، وكان أكبر الجماعة الأقارب سنا، وقالا: إن الخليفة المنتقل قال قبل وفاته باسبوع عن نفسه:«المسكين المقتول بالسكين، وأشار إلى أن الجهة الفلانية حامل منه، وأنه رأى رؤيا تدل أنها ستلد ولدا ذكرا وهو الخليفة من بعده وأن كفالته للأمير عبد المجيد أبي الميمون، فجلس المذكور كفيلا، ونعت بالحافظ لدين الله، في يوم الثلاثاء رابع ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة، يوم قتل الآمر بأحكام الله، وتقرر أن يكون هزار الملوك وزيرا، وأن يكون الأمير السعيد يانس متولي الباب أسفهسلارا، وقرىء سجل في الإيوان بهذا التقرير والحافظ في الشباك جالس، تولى قراءته قاضي القضاة ابن ميسر على كرسي نصب له أمام الحافظ، بحضور أرباب الدولة.

وخلع على هزار الملوك خلع الوزارة، وقد اجتمع في«بين القصرين» خمسة آلاف فارس وراجل، وفيهم رضوان بن ولخشي، أحد الأمراء المميزين أرباب الشجاعة، وهو رأس الجمع، وفي داخل القاعة بالقصر أيضا جماعة فيهم بزغش وقد شق عليه تقدم هزار الملوك وتقلده الوزارة، فنظر إلى أبي علي أحمد بن الأفضل،الملقب كتيفات، وهو جالس، فقال: يامولاي الأجل، أنا أشح عليك أن تطيل الجلوس حتى يخرج هذا

الفاعل الصانع وزيرا فتخدمه ويسومك المشي في ركابه، اخرج إلى دارك، وإذا قضى الله مضيت منها لهنائه.

وكان ظاهر هذا القول مكارمة أبي علي وباطنه أنه علم أن أكثر العسكر الواقفين بين القصرين لايرغبون وزارة هزار الملوك، فدبر أنهم إذا وقعت أعينهم على أبي علي تعلقوا به وأقاموه وزيرا، فيفسد أمر هزار الملوك، فقام أبو علي ليخرج، فمنعه طغج أحد نواب الباب، وكان فطنا ذكيا، فقال له بزغش: لم تمنع هذا المولى من الخروج؟ فقال: كيف لاأمنعه من الخروج إلى هذا الجمع، ولايؤمن تعلق العسكرية فيقع له ماوقع للآخر، فنهره بزغش وقال له: دع عنك الفضول، وقام بنفسه وأخرجه إلى آخر دهاليز القصر، فما هو إلا أن خرج من باب القصر ورآه رضوان بن ولخشي والجماعة، وقد علموا أن هزار الملوك قد خلع عليه للوزارة وأنه سيخرج إليهم، فتواثبوا إلى أبي علي وقالوا هو الوزير ابن الوزير ابن الوزير، وأراد أن ينفلت منهم، واعتذر أنه شرب دواء، فلم يقبل منه، وطلب له في الحال خيمة وبيت صدر، فضربت في جانب من بين القصرين، وأدخلوه فيها.

وقام الصائح وثار العسكر بموافقتهم على وزارته والرضا به، وصاحوا أن لاسبيل أن يلي علينا هذا الصانع الفاعل، وأعلنوا بشتمه، فغلقت أبواب القصر كلها واشتد الأمر، فأحضر ضرغام وأصحابه سلالم وأقاموها إلى طاقات المنظرة، وأطلعوا عليها أميرا يقال له ابن شاهنشاه، فلما أشرف على طاق المنظرة جاء أستاذو الخليفة وأنكروا عليه فعله، فقال هذه فتنة تقوم مايسواها هذا الذي خلعتم عليه، ويحصل من ذلك على الخليفة من الغرامة وسوء أدب جهال العسكر مالايتلافى، وماهذا مني والله إلا نصيحةلمولانا، فإنني قد علمت من رأي القوم مالاعلمتم، أخبروا مولانا عني بهذا.

فمضى الأستاذون إلى الحافظ وأبلغوه ماقال ابن شاهنشاه وهزار

الملوك بين يديه بخلع الوزارة يسمع القول، فقال له الحافظ: ها أنت تسمع مايقال، فقال: يامولانا، أنا في محلك ووزارتي بوصية خليفة قبلك، فاتركني أخرج لهؤلاء الفعلة الصنعة، فقال: لاسبيل لفتح باب القصر في مثل هذا الوقت، وقد فعلنا في أمرك مارتب لك، وهذه الخلع عليك، ولكن قد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: لارأي لمن لايطاع.

واشتد الأمر وكثر تموير العسكر، فقيل لابن شاهشناه: قد أجبتهم إلى وزارة أبي علي ومانحن له كارهون، فأعاد ذلك على رضوان وأصحابه، فقالوا: قل له يسلم لنا هزار الملوك، فامتنع من ذلك وقد تكاثر القوم على سور القصر وعزموا على طلب المذكور ولابد، فقال الحافظ له: قم واحتجب في مكان عسى ندبر في قضيتك أمرا نصرف به هذا الجمع عنا وعنك.

فنزعت الخلع (التي) عليه وأحيط به، فصار إلى مكان قتل فيه قتلة مستورة وألقيت رأسه إلى القوم فسكنوا.

واستدعي بالخلع لأبي علي، فأفيضت عليه في يوم الأربعاء خامسه، وركب إلى دار الوزارة والجماعة مشاة في ركابه، فكانت وزارة هزار الملك نصف يوم بغير تصرف، وكان قد اصطفاه الآمر لنفسه هو وبزغش قبل موته بمدة، ورد له المظالم والنظر في أحوال الجند، وهو نوع من الوزارة، وكان ينعت بالأفضل.

ووقع النهب في القاهرة من باب الفتوح إلى باب زويلة، ونهبت القيسارية وكان فيها أكثر مايملكه أهل القاهرة لأنها كانت مخزنهم ومذ بنيت لم يكن فيها أمر يكره، فكان هذا أول حادث حدث على القاهرة من النهب والطمع.

وطيف برأس هزار الملوك على رمح، واستقرت الوزارة لأبي علي أحمد ابن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي، وكان يلقب بكتيفات، في يوم الخميس سادس عشر ذي القعدة، فأول مابدأ به أنه أحاط بالحافظ وسجنه في خزانة فيما بين الإيوان وباب العيد[٩٩] ويقال إن رضوان بن ولخشي دخل إليه وقيده، فقال له الحافظ: أنت فحل الأمراء فنعت بذلك.

وتمكن أبو علي واستولى على جميع مافي القصر من الأموال والذخائر، وحمل الجميع إلى دار الوزارة بعد أن فرق أكثر ما كان الآمر جمعه من الغلال في الناس على سبيل الإنعام ، وكان السعر غاليا، يباع القمح بنحو الدينار كل إردب، فأراد أبو علي أن يحسن سمعته، فأمر أن تفتح المخازن وأطلق أكثر ماكان فيها، وكانت مئين ألوف ارادب، ورد على الناس الأموال التي فضلت في بيت المال من مال المصادرة التي كان قد أخذها الآمر في أيام مباشرة الراهب وماكتبت به الخطوط قبل ذلك، وكان الذي وجد خمسين ألف دينار، فاستبشر الناس به، وفرحوا فرحا طاشت منه عقولهم، وضجوا بالدعاء له في سائر أعمال الديار المصرية، وأعلنوا بذكر معايب الآمر ومثالبه، وأقطع الحجرية البلاد، وظهر فرح الناس وابتهاجهم.

وأكرم بزغش العادل الذي أشار عليه بالخروج من القصر إكراما كثيرا، وكانت قد ضربت ألواح على عدة أملاك في أيام الآمر فأعيدت إلى أربابها.

وكان إماميا متشددا، فالتفت عليه الإمامية ولعبوا به حتى أظهر المذهب الإمامي، وتزايد الأمر فيه إلى التأذين فانفعل بهم، وحسنوا له الدعوة للقائم المنتظر، فضرب الدراهم باسمه ونقش عليها:«الله الصمد الإمام محمد»، وخطب بنفسه في يوم الجمعة، وكان أكثر خلق الله تخلفا

وأقلهم علما، فغلط في الخطبة غلطة فاحشة صحفها فلم ينكر عليه أحد.

واشتد ضرره على أهل القصر من الإرعاد والإبراق، وأكثر من إزعاجهم والتفتيش على ولد الآمر وعلى يانس، صاحب الباب، وعلى صبيان الخاص الآمرية، وأراد أن يخلع الحافظ ويقتله بمن قتله الآمر من إخوته، وكان الآمر لما احتاط على موجود الأفضل بعد قتله بلغه عن أولاد الأفضل كلام في حقه يستقبح ذكره، فأقام عليهم الحجة عندما مثلوا بحضرته، وقال: أبوكم الأفضل غلامي ولامال له، فسفه عليه أحدهم، فغضب وقتلهم، فأراد أبو علي بتفتيشه على الحمل الذي ذكر أنه من الآمر أن يظفر به ليقتله بإخوته، فلم يظهر الحمل، ولاقدر أيضا على قتل الحافظ ولاخلعه، فاعتقله كما تقدم، وخطب للقائم المنتظر تمويها، فنفرت قلوب أهل الدولة منه، وقامت نفوسهم منه، وتعصب قوم من الأجناد من خاص الخليفة، بترتيب يانس لهم، وتحالفوا سرا على قتله، وكانوا أربعين رجلا، وصاروا يرتقبون فرصة ينتهزونها.

فيها قبض على جعفر بن عبد المنعم بن أبي قيراط وعلى أبي يعقوب ابراهيم السامري، ونهب الجند دورهما، وحبسا في حبس المعونة[١٠١] ثم أخرجا ميتين.

سنة خمس وعشرين وخمسمائة

فيها رتب أبو علي بن الأفضل في الحكم أربعة قضاة، فصار كل قاضي يحكم بمذهبه ويورث بمذهبه، فكان قاضي الشافعية سلطان بن ابراهيم بن المسلم بن رشا، وقاضي المالكية أبو عبد الله محمد بن أبي محمد عبد المولى بن أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللبني المغربي، وقاضي الاسماعيلية أبو الفضائل هبة الله بن عبد الله بن حسن بن محمد القاضي فخر الأمناء الأنصاري الأوسي المعروف بابن الأزرق، وقاضي الإمامية

القاضي المفضل أبو القاسم بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن بن محمد ابن أبي كامل، ولم يسمع بمثل هذا في الملة الاسلامية قبل ذلك.

سنة ست وعشرين وخمسمائة

في يوم الثلاثاء سادس عشر المحرم ركب أبو علي أحمد بن الأفضل إلى رأس الطابية ليعرق فرسا في الميدان بالبستان الكبير خارج باب الفتوح من القاهرة، وللعب بالكرة على عادته، فجاء وهو هناك عشرة من صبيان الخاص الذين تحالفوا على قتله متى ظفروا به جميعا أو فرادى، فصاح أبو علي (على) عادة من يسابق بالخيل: راحت، فقال العشرة: عليك، وحملوا عليه وطعنوه حتى قتل، فأدركه أستاذ من أستاذيه وألقى نفسه عليه فقتلوه معه.

واجتمع الأربعون عنانا واحدا وجاءوا إلى القصر وفيهم يانس، وكان مستوحشا من أبي علي، فأخرجوا الحافظ من الخزانة التي كان معتقلا بها، وفكوا عنه القيد وأجلسوه في الشباك على منصة الخلافة وقالوا، ماحركنا على هذا إلا الأمير يانس، فاجتمع الناس، وأخذ له العهد على أنه ولي عهد كفيل لمن لم يذكر اسمه.

ونهب في هذا اليوم كثير من الأسواق والدور والحوانيت، وصار ذلك عادة مستقرة وشيئا معهودا في كل فتنة.

وحملت رأس أبي علي إلى القصر، وكان قد أسقط منذ أقامه الجند ذكر اسماعيل بن جعفر الصادق الذي تنسب إليه الطائفة الاسماعيلية، وأزال من الأذان قولهم فيه:« حي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر» وأسقط ذكر الحافظ من الخطبة، واخترع لنفسه دعاء يدعى به على المنابر وهو:«السيد الأجل الأفضل، سيد ممالك أرباب الدول، المحامي عن حوزة الدين، وناشر جناح العدل على المسلمين، الأقربين والأبعدين،

ناصر إمام الحق في حالي غيبته وحضوره، والقائم في نصرته، بماضي سيفه وصائب رأيه وتدبيره، أمين الله على عباده، وهادي القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده، ومرشد دعاته المؤمنين إلى واضح بيانه وإرشاده، مولى النعم، رافع الجور عن الأمم، مالك فضيلتي السيف والقلم، أبو علي أحمد بن السيد الأجل الأفضل أبي القاسم شاهنشاه أمير الجيوش».

وكانت مدة تحكمه سنة وشهرا وعشرة أيام، ثم حمل بعد قتله ودفن بتربة أمير الجيوش[١٠٢] ظاهر باب النصر.

وخلع على السعيد أبي الفتح يانس الأرمني، صاحب الباب، خلع الوزارة، وكان من غلمان الأفضل ابن أمير الجيوش العقلاء، وله هيبة، وعنده تماسك في الأمور وحفظ للقوانين فهدأت الدهماء وصلحت الأحوال، واستقرت الخلافة للحافظ، وحمل جميع ماكان قد نقل إلى دار الوزارة من الأموال والآلات وأعيد إلى القصر.

ولم يحدث يانس شيئا إلا أنه تخوف من صبيان الخاص، وحدثته نفسه أنهم قد جسروا على الملوك، وأنه ربما غضبوا منه ففعلوا به مافعلوا بغيره، وأحسوا منه بذلك فتفرقوا عنه.

فلما تأكدت الوحشة بينهم وبينه ركب في خاصته وغلمانه وأركب العسكر، والتقوا قبالة باب التبانين[١٠٣] بين القصرين، فقتل منهم مايزيد عن ثلاثمائة فارس من أعيانهم، فيهم قتلة أبي علي أحمد بن الأفضل، وكانوا نحو خمسمائة فارس، فكسر شوكتهم وأضعفهم، فلم يبق منهم من يؤبه له ولايعتد به، فقوي أمر يانس وعظم شأنه.

وكانت له في النفوس مكانة، فثقل على الحافظ وتخيل منه، فأحس بذلك، وصار كل منهما يدبر على الآخر، فبدأ الوزير يانس بحاشية الخليفة، فقبض على قاضي القضاة وداعي الدعاة أبي الفخر صالح بن

عبد الله بن رجاء، وأبي الفتوح بن قادوس فقتلهما، وبلغه شيء يكرهه عن أستاذ من خاص الخليفة، فقبض عليه من غير مشاورة الحافظ، واعتقله بخزانة البنود، وضرب عنقه من ليلته، فاستبدت إلوحشة بينه وبين الحافظ، وخشي من زيادة معناه، فقال لطبيبه: إكفني أمره بمأكل أو مشرب، فأبى الطبيب ذلك خوفا من سوء العاقبة، ويقال إن الحافظ توصل إلى أن سم يانس في ماء المستراح، فانفتح دبره واتسع حتى مابقي يقدر على الجلوس، فقال الطبيب: ياأمير المؤمنين، قد أمكنت الفرصة وبلغت مقصودك، فلو أن مولانا عاده في هذه المرضة اكتسب حسن الأحدوثة، وهذا المرض ليس دواؤه إلا السكون ولاشيء أضر عليه من الحركة والانزعاج، وهو لما يسمع بقصد مولانا تحرك واهتم بلقائه وانزعج، وفي ذلك تلاف نفسه، فقبل ذلك وجاء لعيادته، فلما رآه يانس قام للقائه وخرج عن فراشه، فأطال الحافظ جلوسه عنده ومحادثته، فلم يقم حتى سقطت أمعاؤه، ومات من ليلته، في سادس عشرين ذي الحجة.

وكانت وزارته تسعة أشهر وأياما، وترك ولدين كفلهما الحافظ.

وكان يانس هذا قد أهداه (ابن) باديس جد عباس الوزير—الآتي ذكره إن شاء الله تعالى— إلى الأفضل ابن أمير الجيوش فترقى في الخدم إلى أن تأمر وتقدم وولي الباب، وهي أعظم رتب الأمراء، وكنى بأبي الفتح ولقب بالسعيد، ثم نعت في وزارته بناصر الجيوش سيف الاسلام، وكان عظيم الهمة بعيد الغور، كثير الشر، شديد الهيبة.

وفيها استقرت حال الحافظ لدين الله، وبويع له بيعة ثانية لما علم الحمل.

قال الشريف محمد بن أسعد الجواني: رأيت صغيرا في القرافة

الكبرى، ويسمى بقفيفة، سألت عنه، قيل هذا ولد الآمر: لما ولى الحافظ ولى عهده من يولد، استولى على الأمر، وولد هذا الولد فكتم حاله، وأخرج في قفة على وجهها سلق وكرات، وستر أمره إلى أن ركب بعد ذلك ووشي به فأخذ وقتل.

ولما تمكن الحافظ قرىء سجل بإمامته، وركب من باب العيد إلى باب الذهب بزي الخلفاء، في ثالث ربيع الأول، ورفع عن الناس بواقي مكس الغلة.

وأمر بأن يدعى له على المنابر بهذا الدعاء، وهو: «اللهم صل على الذي شيدت به الدين بعد أن رام الأعداء دثوره، وأعززت الاسلام بأن جعلت طلوعه على الأمة وظهوره، وجعلته آية لمن تدبر الحقائق بباطن البصيرة، مولانا وسيدنا، وإمام عصرنا وزماننا عبد المجيد أبي الميمون، وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين، صلاة دائمة إلى يوم الدين».

وفيها صرف أبو عبد الله محمد بن هبة الله بن ميسر عن قضاء القضاة، في أول ربيع الأول، وقرر مكانه سراج الدين أبو الثريا نجم بن جعفر، وأضيفت إليه الدعوة، فقيل له قاضي القضاة وداعي الدعاة، وذلك وقت العشاء الآخرة من ليلة الخميس لثلاث عشرة بقيت من جمادى الآخرة.

ولما مات يانس تولى الحافظ الأمر بنفسه ولم يستوزر أحدا وأحسن السيرة.

ويقال إن يانس لما قتل القاضي أبا الفخر سلم الحكم إلى سراج الدين أبي الثريا نجم بن جعفر.

وفيها جهز الحافظ الأمير المنتضى أبا الفوارس وثاب بن مسافر

الغنوي رسولا في الرابع من ذي القعدة بجواب شمس الملوك، صاحب دمشق، وأصحبه الخلع السنية وأسفاط الثياب والخيل المسومة، ومالا متوفرا، فوصل إلى دمشق وتلقي أحسن تلقي وقبلت الألطاف منه، وقرىء كتابه، وأقام إلى أن أعيد من القابلة.

وفيها خرج أبو عبد الله الحسين بن نزار بن المستنصر، وكان قد توجه إلى المغرب مستخفيا وجمع هناك جموعا كثيرة وعاد، فبعث الحافظ إلى مقدمي عسكره يستميلهم، فلما وصل دير الزجاج والحمام اغتالوه وقتلوه، فانفض جمعه.

سنة سبع وعشرين وخمسمائة

فيها حشد جماعة من العبيد بالأعمال الشرقية، فخرج إليهم عسكر كانت بينهم وبينه حروب.

وفيها سلم الحافظ أمر الديوان إلى الشريف معتمد الدولة علي بن جعفر بن غسان، المعروف بابن العساف، وصرف يوحنا بن أبي الليث لأشياء نقمها عليه، وسعوا فيه عنده بأنه كان سببا فيما عمله أبو علي أحمد بن الأفضل من تفريق مافرقه من الأموال لأهله وأقاربه، واستخدم الحافظ أيضا أخا معتمد الدولة في نقابه الأشراف وجعله جليسا، وكان عنده أدب ومعرفة بعلم الفلك، وكان الحافظ يحب هذا العلم.

وفيها قبض على ابن عبد الكريم، تربية الآمر، فوجد له ثلاثمائة وستون منديلا مذهبة، وعلى مثالها ثلاثمائة وستون بذلة مذهب، فكان يلبس كل يوم بذلة، وكل منديل، وهي العمامة، على مسمار فضة، ووجد له خمسمائة نرجسية ذهبا وفضة، ومائتا صندوق فيها ثياب ملونات، ومائة حسكة ذهبا وفضة، ومن الجوهر مايعجز عن وصفه.

سنة ثمان وعشرين وخمسمائة

فيها عهد الحافظ إلى ولده سليمان، وكان أسن أولاده وأحبهم إليه، وأقامه ليسد مكان الوزير ويستريح من مقاساة الوزراء وجفائهم عليه ومضايقتهم إياه في أوامره ونواهيه، فمات بعد ولاية العهد بشهرين، فحزن عليه مدة، ثم جعل ابنه حيدرة ولي عهده ونصبه للنظر في المظالم، فشق ذلك على أخيه حسن لأنه كان يروم ذلك لكثرة أمواله وتلاده وحواشيه ومركبه، بحيث كان له ديوان مفرد، ومازالت عقارب العداوة تدب بينهما حتى وقعت الفتنة بين الطائفة الجيوشية والطائفة الريحانية[١٠٤] وكانت شوكة الريحانية قوية والجند يشنئونهم خوفا منهم فاشتعلت نيران الحرب بين الفريقين، وصاح الجند: ياحسن يامنصور، ياللحسنية.

والتقى العسكران، فقتل بينهما مايزيد على خمسة آلاف راجل، فكانت أول مصيبة نزلت بالدولة من فقد رجالها ونقص عدد عساكرها، ولم يسلم من الريحانية إلا من ألقى نفسه في بحر النيل من ناحية المقس، واستظهر حسن وصار الأمر إليه، فانضم له أوباش العسكر وزعارهم، وفرق فيهم الزرد وسماهم صبيان الزرد، وصاروا لايفارقونه ويحفون به إذا ركب، ويلازمون داره إذا نزل.

فقامت قيامة الناس، وقبض على ابن العساف وقتله واختفى منه الحافظ وحيدرة،وجد في طلب حيدرة، وهتك بالأوباش الذين اختارهم حرمة القصر، وخرق ناموسه من كونه نغص على أبيه وأخيه، وصاروا يحسنون له كل رذيلة ويجروه على أذى الناس.

فأخذ الحافظ في تلافي الأمر مع حسن لينصلح، وعهد إليه بالخلافة في يوم الخميس لأربع بقين من شهر رمضان، وأركبه بالشعار، ونعت بولي

عهد المؤمنين وكتب له بذلك سجلا قرىء على المنابر، فكان يقال على المنابر:«اللهم شيد ببقاء ولي عهد المؤمنين أركان خلافته، وذلل سيوف الاقتدار في نصره وكفايته، وأعنه على مصالح بلاده ورعيته، واجمع شمله به وبكافة السادة إخوته، الذين أطلعتهم في سماء مملكته بدورا لايغيرها المحاق، وقمعت ببأسهم كل مرتد من أهل الشقاق والنفاق، وشددت بهم أزر الإمامة، وجعلت الخلافة فيهم إلى يوم القيامة».

فلم يزده ذلك إلا شرا وتعديا، فضيق على أبيه وبالغ في مضرته، فسير الحافظ وفي الدولة إسحاق، أحد الأستاذين المحنكين، إلى الصعيد ليجمع ماقدر عليه من الريحانية فمضى واستصرخ على حسن، وجمع من الأمم مالايعلمه إلا الله، وسار بهم، فبلغ ذلك حسنا، فجهز إليه عسكرا عرمرما وخرج، فالتقى الجمعان، وهبت ريح سوداء في وجوه الواصلين، وركبهم عسكر حسن، فلم يفلت منهم إلا القليل، وغرق أكثرهم في البحر وقتلوا ، وأخذ الأستاذ إسحاق وأدخل إلى القاهرة على جمل برأسه طرطور لبد أحمر، فلما وصل بين القصرين رشق بالنشاب، حتى مات، ورمي إليهم من القصر الغربي أستاذ آخر فقتلوه، وقتل الأمير شرف الأمراء.

فلما اشتد الأمر على الحافظ عمل حيلة وكتب ورقة ورماها إلى ولده حسن، فيها: «ياولدي أنت على كل حال ولدي، ولو عمل كل منا لصاحبه مايكره الآخر ماأراد أن يصيبه مكروه، ولايحملني قلبي، وقد انتهى الأمر إلي أن أمراء الدولة فلانا وفلانا —وسماهم له— وأنك قد شددت وطأتك عليهم وخافوك، وأنهم معولون على الفتك بك، فخذ حذرك ياولدي».

فلما وقف حسن على الورقة قامت قيامته، فلما اجتمع أولئك الأمراء في داره للسلام عليه أمر صبيان الزرد الذين اختارهم وصار يشق بهم

فقتلوهم بأجمعهم، وأخذ مافي دورهم، فاشتدت مصيبة الدولة بفقد من قتل من الأمراء الذين كانوا أركان الدولة، وهم أصحاب الرأي والمعرفة، فوهت واختلت لقلة الرجال وعدم الكفاة.

ومن حين قتل حسن الأمراء تخوفه باقي الجند، ونفرت نفوسهم منه فإنه كان جريئا عنيفا بحاثا عن الناس يريد إقلا ب الدولة وتغييرها لتقدم أصحابه، وأكثر من مصادرة الناس، وقتل سراج الدين أبا الثريا نجما في يوم الخميس ثامن شوال، وكان أبو الثريا في أول أمره خاملا في الناس، ثم سمع قوله في العدالة أيام الآمر، فلما قبض أحمد بن الأفضل على أبي الفخر وسجنه عنده بدار الوزارة، لأنه كان الداعي أيام الآمر، طلب من يكون داعيا، فاستخدم نجما هذا ولم يقف على ماكان عنده من الدهاء، فلما كان في وزارة يانس جمع إليه الحكم مع الدعوة، وصار يدبر الدولة، وحسن عنده نصرة طائفة الاسماعيلية والانتقام ممن كان يؤذيهم وجعل لهم زماما قتله حسن بن الحافظ لما قتل الشريف بن العباس، وأخذ نجم يعادي أمراء الدولة ورؤساءها ولاينظر في عاقبة —وكانوا قد حسدوه على قربه من الحافظ وتمكنه منه ومطاوعته له بحيث لايعمل شيئا إلا برأيه— فلما تمكن حسن بن الحافظ أغروه به فقتله وقتل معه جماعة، ورد القضاء لابن ميسر وخلع عليه في يوم الخميس ثاني ذي القعدة.

وفيها مات القاضي المكين أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسين بن حديد بن حمدون الكناني قاضي الاسكندرية بثغر رشيد، وقد عاد من القاهرة في جمادى الآخرة، ومولده سنة اثنتين وستين وأربعمائة، وكانت له مدة في القضاء، وهو الذي كان سببا في اعتقال أبي الصلت أمية الأندلسي، وقد ذكره السلفي[١٠٠٥] وأثنى عليه، ورثي بعدة قصائد.

وفيها مات أبو عبد الله الحسين بن أبي القضل بن الحسين الزاهد

الناطق بالحكم، المعروف بابن بشرى الجوهري، الواعظ ابن الواعظ ابن الواعظ ابن الواعظ، في جمادى الأولى، وكان حلو الوعظ، إلا أنه تعرض في آخر عمره لما لايعنيه، فنفاه الحافظ إلى دمياط، وذلك أن الآمر لما مات ترك جارية حاملا، فقام الحافظ بعده في الخلافة على أن يكون كفيلا للحمل حتى يكبر، فاتفق أنه ولد وخافت أمه عليه من الحافظ، فجعلته في قفة من خوص وجعلت فوقه بصلا وكراثا وجزرا حتى لايفطن به، وبعثته في قماطة تحت الحوائج في القفة إلى القرافة، وأدخل به إلى مسجد أبي تراب الصواف، وأرضعته المرضعة، وخفي أمره عن الحافظ حتى كبر، وكان يعرف بين الصبيان بقفيفة، فلما حان نفعه نم عليه ابن الجوهري هذا إلى الحافظ، فأخذ الصبي وفصده، فمات، وخلع على ابن الجوهري ثم نفاه إلى دمياط فمات بها.

سنة تسع وعشرين وخمسمائة

فيها عظم أمر حسن بن الحافظ وقويت شوكته، وتأكدت العداوة بينه وبين من بقي من الأمراء والأجناد واشتد خوفهم منه، وعزموا على خلع الحافظ من الخلافة وخلع ابنه حسن من ولاية العهد، وعزله عن الأمر، فاجتمعوا بين القصرين، وهم نحو العشرة آلاف مابين فارس وراجل، وبعثوا إلى الحافظ فشكوا مافيه ابنه حسن وأرادوا إزالته عنهم، فعجز حسن عن مقاومتهم ولم يبق بدا من الفرار منهم إلى أبيه، فصار إليه، وكان قد نزل بالقصر الغربي، ففتح سردابا بين القصرين ووصل إلى أبيه بالقصر الشرقي من تحت الأرض، وتحصن بالقصر، فبادر الحافظ بالقبض عليه وقيده، وأرسل إلى الأمراء يخبرهم بالقبض على حسن، فأجمعوا على طلبه ليقتلوه، فبعث إليهم يقبح مرادهم منه أن يقتل ولده، وأنه قد أزال عنهم أمره، وضمن لهم أنه لايتصرف أبدا، ووعدهم بالزيادة في الأرزاق والاقطاعات، فلم يقبلوا ذلك، وقالوا: إما نحن وإما هو، وأحضروا الأحطاب والنيران لإحراق القصر، وبالغوا في الجرأة على الحافظ، فلم يجد

من ينتصر به عليهم لأنهم أنصاره وجنده الذين يستطيل بهم على غيرهم، فألجأته الضرورة إلى أن استمهلهم ثلاثة أيام ليتروى فيما يعمل.

فرأى أنه لاينفك من هذه النازلة العظيمة إلا بقتل ابنه لتنحسم مادة المباينة بينه وبين العسكر التي لايأمن إن استمرت أن تأتي على نفسه هو، فإنهم لم يبرحوا من بين القصرين، فاستدعى طبيبه: أبا منصور وابن قرقة، فبدأ بأبي منصور اليهودي وفاوضه في عمل سقية قاتلة فتحرج من ذلك وأنكر معرفته كل الإنكار، وحلف برأس الخليفة وعلى التوراة أنه لم يقف قط على شيء من هذا، فتركه وأحضر ابن قرقة، وكان يلي الاستعمالات بدار الديباج، وخزائن السلاح والسروج، وفاوضه في ذلك، فقال: الساعة، ولايتقطع منها الجسد بل تفيض النفس لاغير، فأحضرها من يومه، وألزم الحافظ ابنه حسنا بمن ندبه من الصقالبة، فأكرهوه على شربها، فمات في يوم الثلاثاء عشرين جمادى الآخرة.

وقيل للقوم سرا: قد كان ماأردتم فامضوا إلى دوركم، فلم يثقوا بذلك، وقالوا لابد أن يشاهده منا من نثق به، وندبوا منهم أميرا يعرف بالجرأة والشر يقال له المعظم جلال الدولة محمد، ويعرف بجلب راغب الآمري، فدخل إلى حيث حسن بن الحافظ فإذا هو مسجى بثوب ملاءة، فكشف عن وجهه وأخرج من وسطه سكينا وغرزه في عدة مواضع من بدنه حتى تيقن أنه ميت، وانصرف إلى أصحابه فتفرقوا[١٠٦].

وكان تاج الدولة بهرام الأرمني قد انفلت من حسن بن الحافظ وولي الغربية، فلما علم أن النفوس جميعها من البدو والحضر قد انحرفت عن حسن، جمع مقطعي الغربية والأرمن والعربان وطلب القاهرة، ويقال كان ذلك بمباطنة من الحافظ، فما وصل إلى القاهرة حتى عابت حشوده في القرى والضياع ونهبوها.

وعندما وصل إلى القاهـرة، يوم الخميس وقت العصر، الحادي عشر من جمادى الآخـرة التـف عليـه مـن بها مـن الأمـراء والأجنـاد وأبـادوا أكثـر الجيوشيـة والاسكندرانيـة والفرجيـة ومن يقـول بقولهم مـن الغز الغـرباء، ونهب أبواش الناس ماقدروا عليه.

ولما قتل حسـن وسكنت الدهماء قبض الحافـظ على الطبيب ابن قـرقة وقتلـه بخـزانـة البنـود،و ارتجع جميـع أمـلاكـه ومـوجـوده، وكـان يلي الاستعمالات بـدار الـديبـاج وخـزائن السـلاح والسروج، وأنعـم على أبي منصور الطبيب وجعله رئيسا على اليهود وصارت له نعم جليلة.

وفيها كـانت وزارة بهرام الأرمنـي النصراني الملقب تـاج الدولـة، وكان السبب في ولايته الـوزارة أنه جرت فتنة بين الأجناد والسودان عنـدما قتل حسن بن الحافظ قوى فيها السودان على الأجنـاد وأخرجوهم من القاهرة، فإن السودان كانوا مع حسن دون الأجنـاد، فإنهم الذين حملوا أباه الحافظ على قتله، وقـدم بهرام بالحشد كما تقدم، فـوجد حسنا قد مـات، فمسكه الأجناد بظـاهر القاهـرة وأدخلوه على الحافـظ لدين الله في يـوم الخميس، بعد العصر، الحادي عشر من جمادى الآخرة لتولية الوزارة، فخلع عليه في يوم الأحد، رابع عشرة، ثم خلع عليه ثانيا يوم الخميس ثامن عشرة، خلع الـوزارة، ونعت بسيـف الاسلام تـاج الخلافـة، وهو نصراني، مـع كراهـة الحافظ لذلك، لتسكـن الفتنة، ولم يرد إليه شيئا من الأمـور الشرعية، فلم يدخل في مشكل لأنه كان عاقلا سيوسا حسن التدبير.

وتقدم كثير من حـواشي الحافظ إليه ينكرون عليه ولاية بهرام مـع كونه نصرانيا، وقالـوا: لايرضى المسلمون بهذا، ومـن شرط الوزير أن يرقـى مع الإمـام المنبر في الأعيـاد ليـزرر عليـه المزررة الحاجـزة بينـه وبين النـاس، والقضاة نواب الـوزير من زمن أمير الجيـوش، ويذكرون دائما النيابـة عنه في الكتب الحكـمية النافـذة إلى الآفاق وكتـب الأنكحة فقـال: إذا رضينا

نحن فمن يخالفنا، وهو وزير السيف، وأما صعود المنبر فيستنيب عنه قاضي القضاة، وأما ذكره في الكتب الحكمية فلا حاجة إلى ذلك ويفعل فيها ماكان يفعل قبل أمير الجيوش.

فشق على الناس وزارته، وتطاول النصارى في أيامه على المسلمين، وكان هو قد أحسن السيرة وساس الرعية، وأدى الطاعة للخليفة، وأنفق في الجند جملة من الأموال، ودبر الأمور فاستقامت له الأحوال، وراسله الملوك، وزال ماكان في البلد من الفتن، فلم ينكر عليه سوى أنه نصراني.

وكان يقعد يوم الجمعة عن الصلاة فلا يحضر، بل يعدل إلى مكان بمفرده حتى يصلي الخليفة بالناس، وأقبل الأرمن يردون إلى القاهرة ومصر من كل جهة حتى صار بها منهم عالم عظيم، ووصل إليه ابن أخيه، وكان يعرف بالسبع الأحمر، فكثر القيل والقال، وأطلق أسيرا من الفرنج كان من أكابرهم، فأنكر الناس ذلك ورفعوا فيه النصائح للحافظ، وأكثروا من الإنكار.

وكان رضوان بن ولخشي حينئذ صاحب الباب، وهو شجاع كاتب، فبلغ بهرام أنه يهزأ به في قوله وفعله، فثقل عليه وأخذ يعمل على إخراجه من القاهرة، وولى أخاه الباساك قوص[١٠٧].

وفيها توفي الأديب أبو نصر ظافر بن القاسم بن منصور بن عبد الله الجروي الجذامي الاسكندراني المعروف بالحداد[١٠٨] بمصر.

سنة ثلاثين وخمسمائة

فيها أخرج بهرام الأمير رضوان بن ولخشي من القاهرة لولاية عسقلان، وقيل بل كان خروجه في سلخ رجب من السنة الماضية، فلما وصل إليها وجد فيها جماعة من الأرمن قد وصلوا في البحر يريدون القاهرة ،

فناكدهم ومنع كثيرا منهم، فبلغ ذلك الوزير بهرام، فشق عليه، وصرفه عن عسقلان، واستدعاه، فقدم إلى القاهرة، وشكره الناس على منعه الأرمن من الوصول إلى القاهرة، فلم يطق بهرام إقامته معه، فولاه الغربية في صفر إبعادا له عنه.

وفيها ملك رجار بن رجار ملك صقلية جربة[١٠٩]، ونازل طرابلس الغرب فانهزم عنها[١١٠].

سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة

فيها تكاثر حضور أقارب بهرام وإخوته، وأهله وقومه، ومجيئهم من ناحية تل باشر وكانوا مقيمين بها، ولهم فيها كبير منهم يتولى أمرهم، وقدموا أيضا من بلاد الأرمن، حتى صار منهم بديار مصر نحو الثلاثين ألف إنسان، فعظم ضررهم بالمسلمين وكثرت استطالتهم، واشتد جورهم، وتظاهروا بدين النصرانية، وأكثروا من بناء الكنائس والديارات، وصار كل رئيس منهم يبني له كنيسة بجوار داره.

وتفاقم الأمر، فخاف الناس منهم أن يغيروا الملة الاسلامية، ويغلبوا على البلاد فيردوها دار كفر، فتتابعوا في الشكاية من أهل بهرام وأقاربه.

ووردت الأخبار من قوص بأن الباساك، أخا بهرام قد جار على الناس واستباح أموالهم، وبالغ في أذيتهم وظلمهم، فاشتد ذلك على الناس، وعظم على الأمراء مانزل بالمسلمين، فبعثوا إلى أبي الفتح رضوان بن ولخشي —وكان مقدما (يعرف) فيهم لكثرة نعوته بفحل الأمراء، وهو يومئذ يتولى الغربية— يشكون إليه ماحل بالمسلمين ويستحثونه على المصير وإنقاذهم مما نزل بهم.

فلما وصلت إليه كتب الأمراء تشمر لطلب الوزارة، ورقى المنبر خطيبا

بنفسه فخطب خطبة بليغة حرض فيها الناس على الجهاد في سبيل الله، والاجتماع لقتال بهرام وشيعته النصارى من الأرمن، وكان حينئذ بمدينة سخا[١١١] ثم نزل وحشد الناس من العربان وغيرهم حتى استجاب له نحو من ثلاثين ألفا،فأخرج لهم كتب الخليفة الحافظ إليه بالتقدم بالمسير ونزع الوزارة من يد بهرام إذ تبين أنه ليس من أهل الملة، وسار بهم إلى دجوة[١١٢]، وبهرام لاينزعج.

فلما قرب رضوان جمع بهرام الأرمن إليه وقال لهم: اعلموا أننا قوم غرباء لم نزل نخدم هذه الدولة، والآن فقد كثر بغضهم لأيامنا، وماكنت بالذي أكون عبد قوم وأخدمهم من حال الصبا، فلما بلغني الكبر أقاتلهم ، لاضربت في وجوههم بسيف أبدا، سيروا وأخذ امراء الدولة وعساكرها يخرجون شيئا بعد شيء إلى رضوان.

واجتمع بهرام بالخليفة وفاوضه في أمره، فقال:تغلبني الاسلام عليك فأيس حينئذ، وجمع الأرمن، وكانوا كلهم منقادين إليه لايخالفونه في شيء من الأشياء، وسار بهم نحو بلاد الصعيد يريد أخاه الباساك بقوص، قاصدا أنه يجتمع به ويمضون إلى أسوان فيتملكونها ويتقوون بالنوبة أهل دينهم، وقد ذكر أن بهرام خرج يريد محاربة رضوان في عساكر مصر.

فلما وصل بعسكر القاهرة إلى رضوان رأوا المصاحف قد رفعها رضوان فوق الرماح، فصاروا بأجمعهم إلى رضوان باتفاق كان بينهم وبينه من قبل ذلك، فعاد بهرام إلى القاهرة وأخذ ماخف حمله، وخرج من باب البرقية[١١٣] يوم الأربعاء، وقت العصر، حادى عشر جمادى الأولى، وسار يريد الصعيد وقد أوسق المراكب بما يحتاج إليه فعندما رحل اقتحم رعاع الناس وأوباشهم إلى دار الوزارة فنهبوها وهتكوا حرمتها، وعملوا كل مكروه، فكان هذا أول نهب وقع في دار الوزارة، وامتدت الأيدي إلى دور الأرمن التي كانوا قد عمروها بالحسينية خارج باب الفتوح[١١٤]، فنهبوها، ونهبوا كنيسة الزهري[١١٥] ونبشوا قبر البطرك، أخي بهرام.

وطار خبر انهزام بهرام في سائر إقليم مصر، فوصل الخبر بذلك إلى قوص قبل وصول بهرام، فثار المسلمون بها على الباساك وقتلوه ومثلوا به، وجعلوا في رجله كلبا ميتا، وألقوه على مزبلة، فلما كان بعد قتله بيومين قدم بهرام في طائفة الأرمن، وهم نحو الألفي فارس، رماة، فرأى أخاه على المزبلة كما ذكر، فقتل جماعة من أهل قوص ونهبها، وسار عنها إلى اسوان، فنزل بالأديرة البيض، وهي أماكن حصينة في غربي أخميم، فتفرق عنه عدة من الأرمن وساروا يريدون بلادهم.

وأما رضوان فإنه لما وصل إلى القاهرة وقف بين القصرين، واستأذن الحافظ فيما يفعله، فأشار بنزوله في دار الوزارة، فنزلها، وخلع عليه خلع الوزارة يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الأولى، ونعت بالسيد الأجل الملك الأفضل، فاستدعى بالأموال من الخليفة، وأنفق في الجند، ومهد الأمر، ورضوان أول وزير لقب بالملك.

فلما كان في اليوم الثالث من استقراره في الوزارة سير أخاه الأوحد ابراهيم ومعه العسكر شرقا وغربا، والأسطول بحرا، في طلب بهرام، وبيده أمان له ليعود مكرما وطائفته على إقطاعاتهم، فسار إلى الأديرة، وتقرر الحال من غير قتال على إقامة بهرام بها، وذلك أن أسوان امتنعت عليه بكنز الدولة وأهلها، فاضطر إلى الإقامة بالأديرة وقد فارقه أكثر الأرمن، فمنهم من سار إلى بلاده ومنهم من أقام بأرض مصر ليكونوا فلاحين، فسأل لهم مواضع يسكنونها فأفردت لهم جهات، منها سملوط[١١٦] وإبوان[١١٧] وأقلوسنا[١١٨] والبرجين[١١٩] في صعيد مصر، وضيعة أخرى بأعمال المحلة، وأقام بهرام بالأديرة البيض ومعه أهله وولده.

وفيها صرف أبو عبد الله محمد بن ميسر عن قضاء القضاة في يوم الأحد لسبع خلون من المحرم، والوزير إذ ذاك بهرام، ونفي إلى تنيس،

فأقام بها إلى يوم الاثنين ثاني ربيع الأول، وقتل، وهو من قيسارية، وقدم منها مع ابنه وهوصغير في وزارة أمير الجيوش بدر الجمالي عند حضوره إلى المستنصر في سني الشدة، وبعثه إلى البلاد الشامية لإحضار أرباب الأموال واليسار، وكان من جملة من أحضر والد القاضي ، وكان له مال جزيل، ففوض إليه خطابة الجامع بمصر، وفتح دار وكالة وأقام بها مدة حتى مات، فترقى ولده إلى أن ولي القضاء عدة مرار، وكان له أفضال ومكارم، وحصلت له وجاهة ورتبة جليلة، وضرب دنانير كثيرة كان اقترحها على الخليفة الآمر[١٢٠] وهو الذي أخرج الفستق الملبس بالحلوى، فإنه بلغه أن أبا بكر محمد بن علي المادرائي عمل الكعك الذي قال له «افطن له» وعمل عوضا من حشو السكر دنانير، فلما مد السماط في يوم العيد قال أحد الخدام لصديق له كان على السماط: افطن له، ففهم عنه وتناول من ذلك، وصار يخرج الذهب من فمه ويخفيه حتى تنبه الناس لذلك، فتناولوا بأجمعهم منه، فأراد القاضي ابن ميسر أن يشبه بأبي بكر المادرائي في ذلك، فعمل صحنا منه لكن جعل فستقا قد لبس حلوى وذلك الفستق من ذهب، وأباحه أهل مجلسه، ولم يقدر على عمل ذلك سوى مرة واحدة.

ثم إنه لما تناهت مدته عاداه رجل يعرف بابن الزعفراني، فنم عليه عند الحافظ بأن أحمد بن الأفضل لما كان قد اعتقل الحافظ وجلس للهناء ودخل عليه الشعراء كان فيهم على بن عباد الإسكندري، وأنه أنشد قصيدة يذم فيه خلفاء مصر ويذكر سوء اعتقادهم، منها في ذم الحافظ:

هذا سليمانكم قد رد خاتمه
واسترجع الملك من صخر بن إبليس

فعندما قال هذا البيت قام ابن ميسر وألقى عرضيته طربا بهذا البيت،

فأمر الحافظ بإحضار هذا الشاعر، وقال: أنشدني قصيدتك: فأنشدها إلى أن بلغ فيها إلى قوله:

«ولاترضو عن الخمس المناحيس» يعني الحافظ وابنيه وأباه وجده، فأمر الغلمان بلكمه، فلكموه حتى مات بين يديه، وقبض على ابن ميسر ونفي ثم قتل، وكان ينعت بجلال الملك، وكانت علامته «الحمد لله على نعمه».وفيها مات أبو البركات بن بشرى الواعظ المعروف بابن الجوهري في جمادى الأولى عن إحدى وتسعين سنة.

وفيها ولي قضاء القضاة أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي عقيل، ونعت بقاضي القضاة الأعز أبي المكارم.

وفيها ثار بناحية برقة رجل من بني سليم وادعى النبوة، فاستجاب له خلق كثير، وأملى عليهم قرآنا منه: إنما الناس بالناس، ولولا الناس لم يكن الناس، والجميع رب الناس، ثم تلاشى أمره وانحل عنه الناس.

وفيها جلس الوزير رضوان في ذي القعدة لاستخدام المسلمين في المناصب التي كانت بأيدي النصارى، واستجد ديوان الجهاد[١٢١] واهتم بتقوية الثغور واستعد لتعمير عسقلان بالعدد والآلات،وأشاع الخروج إلى الشام لغزو الفرنج، وأظهر من الاعتناء بذلك مالايوصف، وكان قد مهد الأمور، وأعاد الناس إلى ماكانوا عليه من الطمأنينة بحسن سيرته، وكثرة عدله وعمارته البلاد، وقوة نفسه وشجاعته، وأحضر الدواوين وكتبها ورتبها،ودبر الأمور احسن تدبير.

وكان من جملة الضمان في أموال الدولة هبة الله بن عبد المحسن الشاعر، فلما عرض حسابه وجد قد انكسر عليه مال في ضمانه، فكتب له في المجلس:

أنـــا شـــاعـــر وصنعتـــي الأدب
وضمان مثلي المال لايجب
أنـــا مستميحكـــم وليـــس على
مـــن جـــاء يطلـــب رفـــدكـــم طلـــب
وإذا تـــأخـــر البـــاقـــي علي فما
مـــن حـــاصـــل ورق ولاذهـــب

فسامحه فيما عليه من الباقي.

وفيها أحضر من الصعيد الأعلى في رمضان جماعة تقدمهم رجل بجاوي يدعى فيه أصحابه أنه إله فصلبوا.

سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة

فيها أفرج الوزير رضوان عن شمس الخلافة مختار الأفضلي، صاحب باب بهرام، من الاعتقال وولاه الاسكندرية.

فيها تشدد رضوان على النصارى من أصحاب بهرام وصادرهم، وقتلهم بالسيف، وأباد أكثرهم وتطلع إلى تقديم أرباب المعارف من أرباب السيوف والأقلام، وأحسن إليهم، وزاد في أرزاقهم.

ووجد نصرانيا قد توصل في أيام بهرام إلى ديوان النظر، يعرف بالأخرم، وبذل في كل يوم ألف دينار سوى المؤن والغرامات، فآذى المسلمين وشق عليهم، فصرفه رضوان واستخدم بدله رجلا يقال له المرتضى المحنك بغير ضمان.

وتقدم إلى ديوان الإنشاء بإنشاء سجل في الوضع من النصارى واليهود، فأنشأه أبو القاسم ابن الصيرفي، منعوا فيه من إرخاء الذوائب وركوب البغلات ولبس الطيالسة، وأمر النصارى بشد الزنانير المخالفة

لألوان ثيابهم، وألا يجوزوا على معابد المسلمين ركبانا، فما رئي في أيامه يهودي ولانصراني يجوز على الجامع راكبا، لكنه ينزل ويقود دابته، وأمر أن تؤخذ الجزية من فوق مساطب وهم وقوف أسفلها، ومنعهم من التكني بأبي الحسن وأبي الحسين وأبي الطاهر، وأن يبيضوا قبورهم وضمن ذلك كله السجل، فعمل به.

وفيها نزع السعر لتوقف النيل، فنال الناس مجاعة، فأمر الحافظ بفتح الأهراء، والبيع منها على الناس بأوسط الأثمان، فلم يمض الوزير بذلك، وأخذ يهين حواشي الخليفة إذا حضروا إليه ويقدح في مذهبه، لأنه كان سنيا، وكان أخوه الأوحد ابراهيم إماميا.

فلما كثر ذلك منه انزعج الخليفة ولم يظهر تغيرا ويعمل في الخلاص منه، فتنافر كل منهما من الآخر.

وكان رضوان خفيفا طائشا لايثبت، فهم بخلع الحافظ وقال ماهو بخليفة ولاإمام، وإنما هو كفيل لغيره، وذلك الغير لم يصح، وأحضر الفقيه أبا الطاهر بن عوف، وابن أبي كامل فقيه الامامية، وابن سلامة داعي الدعاة، وفاوضهم في الخلع واستخلاف شخص عينه لهم، وألزم كلا منهم أن يقول ماعنده فقال ابن عوف: الخلع لايجوز إلا بشروط تثبت شرعا، وقال ابن أبي كامل: السلطان، أبقاه الله، يحملني على أن أتكلم على غير مذهبي في الإمامة، قال: لابل عمل مذهبك؟ فقال: مذهبي معلوم، يعني أن الإمامية لايعتقدون حق الخلافة في بني اسماعيل ابن جعفر، لموته في حياة أبيه وانتقال الإمامة للحاضر من إخوته، ولأنه لاينبغي لمن لم تكن له إمامة أن يخلع، فخلص من هذا وقال الداعي: أنا داعي القوم ومولى لهم، ومايصح لي خلعه، فإني أصير فيما مضى كأني أدعو لغير مستحق، فأكون قد كذبت نفسي فلا أقبل الآن، وأستخصم

بذلك، ولايؤثر قولي فيما تريدون، ولم تجر العادة على الفاطميين بخلع حتى ناتي به.

فقابله على هذا القول بالسب واقامه أقبح قيام، فقال الفقيه النحاس —وكان حاضرا— كل عظيمة، وحمله على خلع الحافظ، فبلغ ذلك المجلس الحافظ.

وفيها أحضرت من تنيس امرأة بغير ثديين وفي موضع ثدييها مثل الحلمتين، فصارت إلى مجلس الوزير رضوان وأخبرته أنها تصنع برجليها جميع مايعمل باليدين من رقم وخط وغير ذلك، فجاء لها في المجلس بدواة فتناولت برجلها اليسرى الأقلام قلما قلما، ثم تناولت السكين برجليها وبرت قلما، واستدعت ورقة وأمسكتها برجلها اليمنى وكتبت بالرجل اليسرى رقعة بأحسن خط تكتبه النساء، وحمدت الله في آخرها، وناولتها الوزير، فإذا فيها سؤال بأن يزاد في راتبها، فوقع لها خلف الرقعة بما سألت وأعادها إلى بلدها.

وفيها بنى الوزير رضوان المدرسة المعروفة (به) في ثغر الاسكندرية، وجعل في تدريسها الفقيه أبا طاهر بن عوف.

سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة

فيها زاد السعر وبلغ القمح ثلاثة دنانير للإردب، فبيعت الغلال التي كان الأفضل خزنها، وقد تغيرت وأرادوا رميها في النيل، فكانت تقطع بالفؤوس وتباع بأربعين دينارا كل مائة إردب، وكذلك الأرز الذي كان مخزونا بمصر فإنه أبيع بعشرة دنانير المائة، فوجد الناس بذلك رفقا.

فيها كثر سعي الوشاة بين الحافظ والوزير فتخوف كل منهما من

الآخر، وقبض الوزير على عدة من خواص الحافظ، منهم أبو المعالي بن قادوس، وابن شيبان المنجم، ورئيس اليهود، وجماعة، فقتلهم، فسير الحافظ من أحضر إليه بهرام في رمضان، فلما حضر أسكنه عنده بالقصر وأكرمه، وشق ذلك على رضوان، وكان الحافظ قد تلطف برضوان في أمر بهرام وقرر معه أن يستدعيه وينزله في القصر، وحلف له أنه لايوليه أمرا ولايمكنه من تصرف، فتسامح رضوان في أمره واستدعي فحضر بأهله وأنزل في دار بالقصر قريبة من المحول[١٢٣] وهو قريب من سكن الحافظ، فكان يستحضره في غالب الليالي ويستشيره ويعمل برأيه.

ولما كان يوم عيد الفطر ركب الوزير مع الحافظ وعليه من الملابس مالم يلبسه أحد من الوزراء في مثل ذلك اليوم، وعاد إلى القصر وفي نفس الحافظ منه أشياء تبينها رضوان في وجه الحافظ وعلمها منه، فاشمأزت نفسه مع ماكان فيه من الطيش، فركب في تاسع شوال وزحف إلى القصر، فكلمه الخليفة من بعض طاقات المنظرة التي تطل على باب الذهب، وجرى بينهما كلام اجترأ فيه على الخليفة ، وعاد إلى داره بعد أن احتاط بالقصر واحتفظ بالأبواب فامتعض الناس لذلك بالقاهرة ومصر، وكثرت الأراجيف.

وفي تلك الحالة نزل بعض أولاد الحافظ من القصر هاربا إلى رضوان، وكان شيخا ومعه ولد له، ليقيمه خليفة، فلم يكترث به، وأحضر اسماعيل بن سلامة الداعي، وقال له: ماتقول في هذا الرجل، هل يصلح لما التمسه؟ فقال: الخلافة لها شروط ونواميس مافي هذا منها شيء، وتحتاج إلى نصوص، ولولا أن مولانا الآمر نص على مولانا الحافظ وأودعه سر الخلافة لما ثبتت فيه ولااستجاب له الناس، فلم يحصل سوى أنه كان مشؤوما على نفسه وأهله، فإن الحافظ لما بلغه ذلك قتله وقتل جماعة منهم كثيرة.

ثم إن الحافظ لما رأى فعل رضوان وتعديه وكثرة من انضم إليه من العسكر عمل في التدبير عليه وأرسل إلى صبي من الجند يعرف بشومان، وكانت فيه شهامة وجرأة وهومن صبيان الخاص، فأحضره إليه من أحد السراديب سرا وأرسله إلى علي بن السلار، أحد أمراء الدولة، يأمره بالتدبير على رضوان، وأنفذ معه مالا إليه، ليستعين به على ذلك، وكان علي بن السلار عاقلا صاحب حزم ويقظة وحسن تأت مع قوة وصرامة.

فلما جاءه القاصد بالمال وبلغه عن الخليفة ماقال، انتهز الفرصة وأرسل إلى جماعة من صبيان الخاص وقرر معهم أن يجتمعوا ويدخلوا من باب زويلة كردوسا واحداً وهم يصيحون: الحافظ يامنصور، وفرق فيهم ماأرسله إليه الخليفة.

فلما كان يوم الاثنين، الثالث عشر من شوال، اجتمع بظاهر القاهرة منهم نحو العشرين وأقبلوا من باب زويلة يصيحون: ياللحافظ، الحافظ يامنصور، فما وصلوا إلى السراجين الذي يعرف اليوم بالشوائين، حتى صاروا نحو الخمسمائة، وماوصلوا بين القصرين إلا والعسكر جميعه من فارس وراجل معهم، ولم يبق من الصبيان والعوام أحد حتى خرج بالنساء، وأشرف النساء من الطاقات، وصاروا بأجمعهم يصيحون: ياللحافظية.

فلما سمع رضوان الضجيج أراد أن يركب، فمنعه بعض غلمانه، فأبى عليه لأنه كان واثقا بنفسه وبمن معه، وخرج وحده بغير سلاح ليس معه سوى سيف، فلقي الناس بنفسه وطردهم يمينا وشمالا، وظهر منه شجاعة تعجب منه من شاهدها، فإنه لقي ألوفا من الناس بمفرده ولم يزل يحمل عليهم حملة بعد حملة إلى أن قتل منهم عدة، وكان أخوه ابراهيم قد بلغه الخبر، فركب من داره وأمسك عنه من يجيئه من ناحية قصر الشوك، وشدت الريحانية ورجعوا إليه من ناحية زيادة الجامع الحاكمي ودرب الفرنجية.

فلما طال عليه وتيقن أن القوم بأجمعهم قد تمالئوا على حربه، وكان قد انقضى من النهار أربع ساعات، وأشرف عليه الأستاذون من ناحية باب الريح من أعالي القصر يرشقونه بالنشاب ويرمونه بالطوب، تحير، وكان ابن أخته والي مصر، فبلغه الخبر، فقام بجميع غلمانه وسار لنجدة خاله، فوجد عند باب زويلة من بلغه الخبر بأنه لايقدر على الوصول إليه، فسار من ناحية باب البرقية ومعه بوقات وطبول، فسمع ابراهيم، أخو رضوان، أصوات البوقات والطبول من جهة باب البرقية، فأنفذ إلى أخيه رضوان يقول له: قد تفرق علينا العسكر وجاء من ناحية قصر الشوك، وقد قاطع الراجل علينا من ناحية باب النصر.

فلما بلغ رضوان ذلك أيقن بالهلاك إن وقف، فما زال يتأخر قليلا قليلا، حتى صار في رحبة باب العيد عند دار سعيد السعداء، وبعث إلى داره، التي هي دار الوزارة من أخذ له شيئا منها على سبيل الخطف، وأوصى إلى أخيه ، فانضم إليه هو ومن معه من أصحابه وفيهم أبو الفوارس وفزارة بن أبي غرة، وشاور بن مجير السعدي، وجماعة من خواصه، وخرجوا من باب النصر، فما هو إلا أن صار بظاهر القاهرة اقتحم الناس دار الوزارة ونهبوها حتى لم يتركوا فيها شيئا.

وماوصل رضوان إلى تربة أمير الجيوش، إلا وقد تلاحق كثير من المغافرة، وكان قد أسلف عند العرب أيادي وأفاض عليهم نعما وأحسن إليهم إحسانا كثيرا في مدة وزارته، فأدركه رجل من العرب يقال له سالم ابن المحجل، أحد شياطين الإنس، وحسن له المسير إلى الشام.

واشتغل الناس بنهب دار الوزارة، وكان قد جمع فيها رضوان أكثر أموال ديار مصر وشحنها بالذخائر وأنواع السلاح والعدد والآلات والغلال، فانتهب جميع ذلك، وأحرقت أخشاب تعب الملوك في تحصيلها، وكان نهب دار الوزارة أول ضرر دخل على الدولة.

وطلب رضوان الشام، فدخل عسقلان وملكها وجعلها معقلة، وتوجه أخوه إلى الحجاز وأقام بها حتى مات، وسار ابن أخته إلى بغداد فأكرمه أصحاب الخليفة هناك، ولم يزل عندهم إلى أن مات.

وخرج رضوان من عسقلان ولحق بصلخد، فنزل على أمين الدولة كمشتكين، صاحبها فأكرمه وأبره وأقام عنده ثلاثة أشهر، ثم أنفذ إلى دمشق، واستفسد من الأتراك بها من قدر عليه.

وفيها خربت الأثارب من زلزلة، وزلزلت دمشق أيضا.

وفيها مات الأعز قاضي القضاة أبو المكارم أحمد بن عبد الرحمن بن أبي عقيل، في شعبان، فأقام منصب القضاء بغير قاض ثلاثة أشهر، ثم اختير الفقيه أبو العباس أحمد بن الحطيئة في ذي القعدة، فاشترط ألا يحكم بمذهب الدولة، فلم يمكن من ذلك، وكان الوزير رضوان قد تقدم إلى الفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد المولى بن أبي عبد الله محمد بن عقبة اللخمي، المعروف بابن اللبني[١٢٤]، المغربي المالكي، أن يعقد الأنكحة، فلما كان في الحادي عشر من ذي القعدة قرر الحافظ في قضاء القضاة القاضي فخر الأمناء أبا الفضائل هبة الله بن عبد الله بن الحسين ابن محمد الأنصاري الأوسي، المعروف بابن الأزرق.

سنة أربع وثلاثين وخمسمائة

فيها عاد الأفضل رضوان بن ولخشي من صلخد في جمع فيه نحو الألف فارس، وكان الناس في مدة غيبته يهتفون بعوده، فبرزت له العساكر ودافعوه عند باب الفتوح، فلم يطق مغالبتهم، فمضى إلى مصر ونزل على سطح الجرف المعروف اليوم بالرصد، وذلك يوم الثلاثاء مستهل صفر، فاهتم الحافظ بأمره، وبعث إليه بعسكر من الحافظية

والآمرية وصبيان الخاص، عدتهم خمسة عشر ألف فارس، مقدم القلب تاج الملوك قايماز، ومقدم الآمرية فرج غلام الحافظ، فلقيهم رضوان في قريب ثلاثمائة فارس، فانكسروا، وقتل كثير منهم، وغنم معظمهم، وركب أقفيتهم إلى قريب القاهرة، وعاد شاور إلى موضعه فلم يثبت، وأراد العود إلى صلخد فلم يقدر، لقلة الزاد وتعذر الطريق، فتوجه بمن معه من العربان إلى الصعيد، فأنفذ إليه الحافظ الأمير المفضل أبا الفتح نجم الدين سليم بن مصال في عسكر ومعه أمان، فسار خلفه، ومازال به حتى أخذه وأحضره إلى القصر آخر نهار الاثنين رابع ربيع الآخر، فعفا عنه الحافظ، ولم يؤاخذ أحدا من الأتراك الذين حضروا معه من الشام، واعتقله عنده بالقصر قريبا من الدار التي بها بهرام.

فيها أضيف لقاضي القضاة هبة الله بن حسن الأنصاري، في سابع عشر جمادى الآخرة تدريس دار العلم بالقاهرة، فمضى إليها، وكان مدرسها أبو الحسن علي بن اسماعيل، فجرت بينهما مفاوضات جرت إلى الخصام الشنيع، فخرج القاضي إلى القصر ماشيا وقد تخرقت ثيابه وسقطت عمامته، فعظم على الحافظ خروجه في الأسواق على هذه الهيئة، وغضب لذلك، فصرفه ورسم عليه، وغرمه مائتي دينار، وألزمه داره، وأمر بطلب أبي الطاهر اسماعيل بن سلامة الأنصاري، فخلع عليه وقرره مكانه، ونعته بالموفق في الدين، ولم يكتب له سجل، فأقام إلى آخر ذي الحجة، ولم يتناول على القضاء معلوما، وكان جاري الحكم في كل شهر أربعين دينارا، وقنع بجاري التقدمة على الدعاة وهو ثلاثون دينارا في الشهر.

فيها ولى الحافظ لدين الله الأمير المفضل نجم الدين أبا الفتح سليم ابن مصال اللكي تدبير الأمور.

سنة خمس وثلاثين وخمسمائة

فيها هلك بهرام الأرمني بالقصر، وكان الحافظ لما أقدمه من الصعيد إلى عنده أنزله في القصر ولم يمكنه من التصرف، وكان يشاوره في تدبير أمور الدولة فيعجبه رأيه وحزمه وعقله،، فلما مات في العشرين من ربيع الآخر حزن عليه حزنا كثيرا ظهر بسببه على القصر غمة، وهم أن يغلق الدواوين ولايفتحها ثلاثة أيام، وأحضر بطرك الملكية وأمره أن يجهز بهرام، فقام يتجهيزه، وأخرج نصف النهار في تابوت وعليه ثوب ديباج أحمر، ومن حوله النصارى يبخرون باللبان والصندروس والعود، وجميع الناس مشاة، فلم يتأخر أحد من أعيان الوقت عن جنازته.

وخرج الخليفة على بغلة شهباء وعليه عمامه خضراء، وثوب أخضر بغير طيلسان، فسار خلف التابوت، وسار والناس تبكي والأقساء يعلنون بقراءتهم، والخليفة سائر، إلى دير الخندق من ظاهر القاهرة(١٢٥) فنزل الخليفة عن بغلته وجلس على شفير القبر وبكى بكاء شديدا.

وكان عاقلا مقداما في الحرب، حسن السياسة، جيد التدبير، وكان أولا يقوم بأمر الأرمن، وسكناهم يومئذ في ناحية تل باشر، فتعصب عليه جماعة منهم وولوا غيره، فخرج مغضبا وقدم إلى القاهرة، فترقى في الخدم إلى أن ولي المحلة، فقام بولايتها، ومنها سار في نوبة حسن إلى القاهرة ومعه من الأرمن نحو الألفين يقولون بقوله، فاستوزره الحافظ.

وفيها مات الفقيه أبو الفتح سلطان بن ابراهيم بن رشا المقدسي في آخر جمادى الآخرة.

سنة ست وثلاثين وخمسمائة

في ليلة الثلاثاء الثاني عشر من ربيع الأول سقطت صاعقة أحرقت ركن منارة الجامع العتيق.

في شعبان غلت الأسعار وعدم القمح والشعير، فبلغ القمح كل إردب إلى تسعين درهما والدقيق إلى مائة وخمسين الحملة[١٢٦]، والخبز إلى ثلاثة أرطال بدرهم، والويبة من الشعير إلى سبعة دراهم المائة، والزيت الحار إلى درهم ونصف الرطل، والقلقاس كل رطلين بدرهم، وعدم الفروج والدجاج فلم يقدر على شيء منه، وعم الوباء وكثر الموتان.

وفيها مات أحمد بن مفرج بن أحمد بن أبي الخليل الصقلي[١٢٧] الشاعر، المعروف بتلميذ ابن سابق، وكان فاضلا ذكيا يتصرف في عدة فنون، وله رسائل حسنة وشعر جيد.

وكان الشعراء في أيام الحافظ قد أطنبوا في المديح وتناهوا في إطالة القصائد حتى صار الإنشاد يؤدي إلى قصر الوقت الذي جرت العادة باستماع أشعارهم فيه، لطول مثولهم بالخدمة، فخرج الأمر إليهم بالاختصار فيما ينشدونه من الأشعار، فقال أحمد بن مفرج يخاطب الخليفة:

أمرتنا أن نصوغ المدح مختصرا
لم لا أمرت ندى كفيك يختصر
والله لا بد أن تجري سوابقنا
حتى يبين لنا في مدحك الأثر

فأمروا بالاستمرار على ماهم عليه من الإطالة في الإنشاد.

سنة سبع وثلاثين وخمسمائة

فيها عظم الوباء بديار مصر، فهلك فيه عالم لايحصى عدده كثرة.

وفيها بعث الحافظ الأمير النجيب رسولا إلى رجار ملك صقلية لمحاربته أهل صقلية، وكان رجار فيه فضيلة، وأمر فصنفت له تصانيف، وكان عنده محبة للأدب، ومدحه ابن قلاقس الشاعر[١٢٨] وغيره.

سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة

فيها خرج محمد بن رافع اللواتي بنواحي البحيرة، فاجتمع له عدد كثير من الناس، فخرج إليه طلائع بن رزيك، وهو يومئذ والي البحيرة، فكانت بينهما حروب قتل فها.

فيها غلت الأسعار بمصر.

سنة تسع وثلاثين وخمسمائة

فيها سير الحافظ الرشيد أبا الحسين أحمد بن الزبير[١٢٩] رسولا إلى اليمن بسجل يقرؤه عليهم، فخرج في ربيع الأول.

وفيها خرج أبو الحسين بن المستنصر إلى الأمير خمارتاش الحافظي صاحب الباب وقال له: اجعلني خليفة، وأنا أوليك الوزارة، فطالع الحافظ بذلك، فأمر بالقبض عليه، فقبض واعتقل.

وفيها قدم، في جمادى الآخرة، من دمشق الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ وإخوته وأهله، ومعهم نظام الدين أبو الكرام محسن وزير أنر

صاحب دمشق، معاضدين له، فأكرم مثواهم وأنزلوا، وأفيضت عليهم العطايا، وتواترت عليهم الإنعامات.

سنة أربعين وخمسمائة

فيها أعيد نظر الدواوين والأتراك والخزائن إلى القاضي الموفق أبي الكرم محمد بن معصوم التنيسي في جمادى الأولى.

سنة إحدى وأربعين وخمسمائة

فيها خرج على الحافظ أمير من المماليك يعرف ببختيار، يطلب الوزارة، بأرض الصعيد، فندب إليه عسكرا عليه سلمان بن يونس اللواتي، فمضى إليه وحاربه، فانهزم وهو من ورائه، حتى أدركه وأخذه أسيرا وقتله.

وفيها قدم صافي الخادم، أحد خدام المتقي، من بغداد فارا، في ثالث عشري جمادى الأولى، خوفا، فأكرمه الحافظ.

وفيها منع من التعرض لصرف شيء من المال الحاضر من الأعمال في جرائد المستخدمين، وأن يكون مايسيب منها على البواقي والفاضل في هذه السنة.

وفيها ملك نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر حلب بعد أبيه.

وفيها ملك رجار بن رجار ملك صقلية مدينة طرابلس الغرب وولى عليها.....ابن مطروح.

سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

فيها صرف أبو الكرم التنيسي في ربيع الآخر، وأعيد نظر الدواوين للقاضي المرتضى المحنك.

وفيها سير الحافظ لظهير الدين صاحب دمشق هدايا وخلعا وتحفا.

وفيها خرج رضوان من نقب نقبه بالقصر، وذلك أن الحافظ لما اعتقله بالقصر أرسل يسأله في أشياء، من جملتها زيارة نجم الدين بن مصال له في الوقت بعد الوقت، فأجابه إلى ذلك لثقته بابن مصال، فحضر في يوم من الأيام ابن مصال لخدمة الخليفة، وبدأ بزيارة رضوان، فدخل إليه ومعه مشدة فيها رقاع بحوائج الناس ليعرضها على الحافظ، وكانت عادته ذلك، فاحتاج إلى الخلاء، فترك مشدته عند رضوان ودخل الخلاء، فأخذ رضوان الرقاع ووقع بخطه عليها كلها بما يسوغ التوقيع به، وأتربها وطواها في المشدة، وخرج ابن مصال فأخذها ودخل على الحافظ، وقد علم أنه كان عند رضوان فقال له: كيف ضيفنا؟ فقال: على غاية من الشكر لنعمة مولانا وجواره، وأخرج رقعة من تلك الرقاع ليعرضها على الخليفة فوجد عليها التوقيع بخط رضوان، فأمسكها وأخرج غيرها، فإذا هي موقع عليها أيضا، وكان الحافظ يراه، فقال: ماهذا؟ فاستحيا ابن مصال عندما تداول الخليفة الرقاع وعليها توقيع رضوان، فقال له الحافظ: يانجم الدين، مازلت مباركا علينا والله يشكر لك ذلك، لقد فرجت عنا غمة، فقال: كيف يامولانا؟ قال: رأيت البارحة رؤيا مقتضاها أنه ربما يشركنا في كثير من أمرنا، فالحمد لله إذ كان هذا وكتب على الرقاع أمضاها بخطه، وخلع على ابن مصال.

فلما طال اعتقال رضوان أخذ ينقب بحيث لايعلم به إلى أن انتهى النقب من موضعه الذي هو فيه إلى تجاه فندق أبي الهيجاء، وخرج

النقب عن سور القصر، وكان قياس مانقبه خمسة وثلاثين ذراعا، فظهر منه بكرة يوم الثلاثاء، ثالث عشرين ذي القعدة، في الجيزة، فالتف عليه جماعة من لواته وعدة من الأجناد، وسمع به الطماعون، وكان للناس فيه أهوية، فندم الحافظ على تركه بغير حارس، وأخذ في العمل.

فلما كان ثالث يوم عدى رضوان من اللوق وسار إلى القاهرة، فخرج إليه عسكر الحافظ وتحاربوا معه عند جامع ابن طولون، فهزمهم، وسار في إثرهم إلى القاهرة، فدخلها في الرابعة من نهار الجمعة سادس عشريه، ونزل بالجامع الأقمر، فغلق الحافظ أبواب القصر وامتنع به، فأحضر رضوان أرباب الدولة والدواوين، وأمر ديوان الجيش بعرض الأجناد وأخذ أموالا كانت خارجة من القصر، وأنفق في طوائف العسكر، وأرسل إلى الحافظ يطلب منه مالا، فسير إليه صندوقا فيه مال وقال له: هذا الحد الذي أراده الله، فاسترض على نفسك.

وأتت ضيافات الناس إلى رضوان، فاستعدى الحافظ أحد مقدمي السودان سرا وقال له: إني بكم واثق، فقال: ماادخرنا هذا إلا لمولانا، فقال: كم أصحابك؟ قال: عشرة، قال: لكم عشرة آلاف دينار واقتلوا هذا الخارجي علينا وعليكم، فأنتم تعلمون إحساننا إليه وإساءته إلينا، فقالوا: يامولانا السمع والطاعة، ورتبوا أنهم يصيحون حول الجامع الأقمر: الحافظ يامنصور، فلما فعلوا ذلك قلق وقال لمن حوله: ماكل مرة يصح لهؤلاء الكلاب مرادهم، فحسنوا له الركوب ظنا منهم أنه إذا ركب إلى بين القصرين لم يجسر أحد عليه، فعندما ركب ضربه واحد من السودان في فخذه ضربة شديدة، وتداركه آخر بضربة، وتوالت عليه الضربات، فقتل في الساعة الحادية عشرة من نهار الجمعة المذكور، وقطعت رأسه وحملت إلى الخليفة الحافظ، فسكنت الفتنة، وهدأت الغوغاء.

ثم إن الحافظ بعث بالرأس إلى امرأة رضوان، فلما وضعت في حجرتها قالت: هكذا يكون الرجال.

وكان رضوان سنيا حسن الاعتقاد، شجاعا، مقداما، قوي القلب، شديد البأس، ولد ليلة عيد الغدير من ذي الحجة، سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وترقى في الخدم إلى أن ولي قوص وإخميم في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، إلا أنه كان مع حسن عبارته وغزارة أدبه طائش العقل قليل الثبات، لايحسن التدبير، ولايتأتى له سياسة الأمور لعجلته وجرأته، وكان أخوه الأوحد ابراهيم أثبت عقلا منه.

ومن جملة ماكتب له في تقليد الوزارة بعد بهرام من إنشاء أبي القاسم ابن الصيرفي: «...لأنك أذهبت عن الدولة عارها، وأمطت من طرق الهداية أوعارها، واستعدت ملابس سيادة كان قد دنسها من استعارها».

ولم يستوزر الحافظ بعد رضوان أحدا، وأعاد النصراني المعروف بالأخرم إلى ضمان الدولة، على ماتقدم، ثم نقم عليه لكثرة المرافعين واعتقله، وطلب منه المال فلم يسمح بشيء، فركب الحافظ يوما ووقف على باب السجن الذي هو فيه من القصر، وأمر به، فأحضر إليه، وقال له: كم تتجالد؟ أريد منك مالي على لسان صاحب الستر، فبينما الخليفة يخاطبة إذ أخذ كفا من تراب وجعله في فيه ، فقال له الحافظ: ماهذا؟ فقال: مالاينبغي نقله إلى مولانا، صلوات الله عليه، فغضب عليه، وأمر بإحضار أبيه وأخيه، وكانا معتقلين، فأخرجا ، وقتل الأخرم وأخاه، وأبوهما ينظر قتلهما، ثم قتل الأب، وأحاط بأموالهم فحصل منهم مايزيد على عشرين ألف دينار عينا.

فيها مات الشيخ تاج الرياسة أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان، المعروف بابن الصيرفي الكاتب، في يوم الأحد لعشر بقين من صفر،

ومولده في يوم السبت الثاني والعشرين من شعبان سنة ثلاث وستين وأربعمائة، وكان أبوه صيرفيا وجده كاتبا، وأخذ صناعة الترسل عن ثقة الملك أبي العلاء صاعد بن مفرج، وتنقل حتى صار صاحب ديوان الجيش، ثم انتقل معه إلى ديوان الإنشاء، ومات الشريف سناء الملك أبو محمد الزيدي الحسيني، ثم تفرد بالديوان فصار فيه بمفرده، وله الإنشاء البديع والشعر الرائع، والتصانيف المفيدة في التاريخ والأدب.

سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

فيها توجه العسكر ، في ثالث صفر، لقتال لواتة وقد تجمعوا وعقدوا الأمر لرجل قدم من المغرب وادعى أنه ولد نزار بن المستنصر، فسار إليهم العسكر وواقعهم على الحمامات وانهزم منهم العسكر، فجهز الحافظ عسكرا آخر، ودس إلى مقدمي لواته مالا جزيلا ، ووعدهم بالإقطاعات، فغدروا بابن نزار وقتلوه، وبعثوا برأسه إلى الحافظ، ورجعت العساكر في ربيع الأول.

وفيها صرف القاضي المكين الموفق في الدين أبو الطاهر اسماعيل بن سلامة الأنصاري عن القضاء، لسبع خلون من المحرم، واستقر على الدعوة الموفق الأمين، كمال الدين، واستخدم في وظيفة القضاء، وكان كريم الأخلاق، حليما، عليه سكينة ووقار، مليح الشيبة، ظريف الهيئة.

(وفيها توفي) أبو الفضائل يونس بن محمد بن الحسن المقدسي القرشي، المعروف بجوامرد، خطيب القدس.

وفيها بلغ النيل تسعة عشر ذراعا وأربعة أصابع، ففاض الماء حتى بلغ إلى الباب الجديد أول الشارع، خارج باب زويلة ، فكان الناس يتوجهون من مصر إلى القاهرة على ناحية المقابر لامتلاء الطريق بالمياه، فلما بلغ الحافظ ذلك أظهر له الحزن والانقطاع، فسأله خواصه عن

ذلك، فأخرج له كتابا وقال: انظر هذا السطر، فإذا فيه:«إذا وصل الماء الباب الجديد انتقل الإمام عبد المجيد» ثم قال: هذا الكتاب الذي نعلم منه أحوالنا وأحوال دولتنا، ومايأتي بعدها، فاتفق أنه لم تنسلخ هذه السنة حتى مرض الحافظ مرضة الموت.

وفيها انقرضت دولة بني باديس، وذلك أن الغلاء اشتد بإفريقية من سنة سبع وثلاثين وخمسمائة إلى سنة اثنتين وأربعين حتى أكل الناس بعضهم بعضا، وخلت القرى، ولحق كثير من الناس بجزيرة صقلية، فاغتنم رجار متملكها الفرصة وبعث جرج، مقدم أسطوله، على نحو مائتين وخمسين شينيا، فنزل على المهدية ثامن صفر سنة اثنتين وأربعين، وبها الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس، ففر بأخف حمله وتبعه الناس، فدخل جرج المهدية بغير مانع، واستولى على قصر الأمير حسن، وأخذ منه ذخائر نفيسة وحظايا بديعات.

وعزم حسن على المجيء إلى مصر، فقبض عليه يحيى بن العزيز، صاحب بجاية، ووكل به وبأولاده، وأنزله في بعض الجزائر، فبقي حتى ملك عبد المؤمن بن علي بجاية في سنة سبع وأربعين، فأحسن إلى الأمير حسن وأقره في خدمته، فلما ملك المهدية تقدم إلى نائبه بها أن يقتدي برأي حسن ويرجع إلى قوله.

فكانت عدة من ملك من بني باديس بن زيري بن مناد تسعة، ومدتهم، من سنة إحدى وستين وثلاثمائة إلى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة مائة واثنتان وثمانون سنة.

وفيها بعث رجار بن رجار ملك جزيرة صقلية إلى المهدية أسطوله، مائتين وخمسين من الشواني، مع جرجي بن ميخائيل، فجد في حصارها حتى أخذها في صفر منها، وملك سوسة وصفاقس وملك رجار بونة.

سنة أربع وأربعين وخمسمائة

فيها وقع الاختلاف بين الطائفة الجيوشية والطائفة الريحانية، فكانت بينهما حروب شديدة قتل فيها عدة من الفريقين، وامتنع الناس من المضي إلى القاهرة ومن الذهاب إلى مصر، وابتدأت الحرب بينهم في يوم الخميس ثامن عشر جمادى الأولى، وتوالت إلى يوم السبت رابع جمادى الآخرة، فانهزمت الريحانية إلى الجيزة.

وهم العسكر بخلع الحافظ من الخلافة، فمات بقصر اللؤلؤة، وقد نقل إليه وهو مريض، بكرة يوم الأحد، وقيل ليلة الاثنين، لخمس خلون من جمادى الآخرة، واشتغل الناس بموته.

وكان له من العمر يوم مات ست وسبعون سنة وثلاثة أشهر وأيام، منها مدة خلافته من يوم بويع بعد أحمد بن الأفضل ثماني عشرة سنة وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما.

وأصابته في ولايته شدائد، واعتقل، ثم لما أعيد تحكم عليه الوزراء حتى قبض على رضوان فلم يستوزر بعده أحدا، وإنما أقام كتابا على سنة الوزراء أرباب عمائم ولم يسم أحدا منهم وزيرا، وهم: أبو عبد الله محمد بن الأنصاري، وخلع عليه بالحنك والدواة، فتصرف تصرف وزراء الأقلام، وصعد المنبر مع الخليفة في الأعياد والجمع، والقاضي الموفق محمد بن معصوم التنيسي، وصنيعة الخلافة أبو الكرم الأخرم النصراني.

وكان الحافظ حازم الرأي، جماعا للأموال، كثير المداراة، سيوسا عارفا، ولم يكن أحد ممن ولي قبله أبوه غير خليفة سواه، وكان يميل إلى علم النجوم، وكان له من المنجمين سبعة، منهم: المحقوف، وابن الملاح، وأبو محمد بن القلعي، وابن موسى النصراني.

وفي أيامه عملت الطبلة التي كانت إذا ضرب بها من به قولنج خرج عنه الريح، ومازالت بالقصر إلى أن كسرت في أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب.

وترك من الأولاد أبا الأمانة جبريل، ويوسف، وأبا المنصور، اسماعيل، وكان مطعونا عليه، فإنه ولي بغير عهد وإنما أقيم كفيلا عن منتظر في بطن أمه، فلم يظهر للحمل خبر.

ومن محاسن مايحكى عنه أنه كان يخرج في كل ستة أشهر عسكر من القاهرة إلى عسقلان لأجل الفرنج تقوية لمن بها من المركزية الكنانية وغيرهم، ويقدم على العسكر عدة، فيجعل على كل مائة فارس أمير، ويقدم على الجميع أمير تسلم إليه الخريطة فيكون أمير المقدمين، وتشتمل الخريطة على أوراق العرض من الديوان بالحضرة ليتفق مع والي عسقلان على عرض العسكر بمقتضاها، ويصدر التعريف من كاتب الجيش هناك إلى الديوان بالحضرة بذلك، ويسلم إليه مبلغ من المال لنفقته معونة لمن فاتته النفقة من العسكر، فإن النقباء الذين للطوائف يجردون من كان من الطوائف حاضرا ومن كان مسافرا في إقطاعه، فيأخذ صاحب الخريطة أوراقا بمن سافر وهو في إقطاعة ليوصل إليه نفقته.

وكانت نفقة الأمراء مائة دينار لكل أمير، وللأجناد ثلاثون دينارا لكل جندي.

واتفق مرة خروج العسكر إلى عسقلان وفيهم خمسة أمراء من جملتهم جلب راغب،الذي اتفق في حسن ابن الحافظ بعد موته ماتقدم ذكره، فلما سير إليه مائة دينار، نفقته، تجهز للسفر في جملة الناس، وسلمت الخريطة لأميرهم، فلما دخلوا على الحافظ ليودعوه ويدعو لهم بالنصر والسلامة على العادة، قضوا حق الخلافة وانصرفوا إلا جلب راغب فإنه

وقف، فقال الحافظ: قولوا للأمير ماوقوفك دون أصحابك، ألك حاجة؟ فقال: يأمرني مولانا بالكلام، قال: قل، فقال: يامولانا ليس على وجه الأرض خليفة ابن بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، غيرك، وقد كان السلطان استزلني فسفهت نفسي وأذنبت ذنبا عظيما عفو مولانا أوسع منه وأعظم فقال له الحافظ: قل ماتريد غير هذا فإنا غير مؤاخذيك به، فقال: يامولانا قد توهمت أنك تحققت أني ماض في حالة السخط، علي، فقال له الحافظ: أنت غني عن هذا الكلام، وقد قلنا لك إنا ماواخذناك، فأي شيء تقصد؟ فقال: لايسيرني مولانا تبعا لغيري، فقد صرت مرارا كثيرة مقدما، وأخشى أن يظن أن هذا التأخير للذنب الذي أنا معترف قال: لا، بل مقدما وصاحب الخريطة، وأمر بنقل الحال عن المقدم الذي تقرر للتقدمة والخريطة إلى جلب راغب، وأعطي مائتي دينار وقال: له استعن بهذه فعد هذا من الحلم الذي قلما سمع بمثله.

وكان الغالب على أخلاقه الحلم، وكان مقدم المطالبية يجيء إلى الخليفة الحافظ ويخبره بغرائب ماظهر، فجاء يوما وأخبر أنه وجد حوضا لطيفا قريبا من معلف الحمار، فلم يتعرض له، فندب الخليفة معه شاهدين حتى أتوا به، فإذا حوض مطبق بغطاء ففك عنه فإذا فيه صنم من رخام أبيض على هيئة الإنسان وهو واضع أصبعا في فيه وأصبعا أخرى في دبره فأمر الحافظ أحد الشاهدين أن يناوله ذلك، فلما أخذ الصنم ضرط ضرطة عظيمة، فألقاه من يده وقد اشتد خجله، فقام موفق، أحد الأستاذين المحنكين، ليناوله إياه فضرط أيضا، فأمر الحافظ بتركه وعلم أنه طلسم للقولنج.

ووجد في مقطع الرخام سرب تحت الأرض فيه جرة مسدودة أحضرت إلى الأستاذ مفضل، المعروف بصدر الباز، فإذا فيها حنش من ذهب زنته ستة مثاقيل ونصف مثقال، وعيناه من ياقوت أحمر، وفي فمه جرس من ذهب، فأعلم به الحافظ، فلم يزل يبحث عن خبره حتى أحضرت له

عدة أحناش كبار، وأخرج ذلك الحنش المذكور فجعلت الأحناش الكبار تخرج رؤوسها ثم تحركها مرة أو مرتين وتسقط ميتة.

وكان الحافظ حريصا على علم السيمياء، فظهر في أيامه الشيخ أبو عبد الله الأندلسي، شيخ بني الأنصاري أوحد زمانه في علم السيمياء فسأله الحافظ أن يريه شيئا من ذلك، فأراه ساحة القصر قد صارت لجة ماء، فيها سفينة متعلقة وشواني حربيات قد خرجت على تلك السفينة وقاتلت أهلها، والحافظ يرى لمعان السيوف ومرور السهام وخفقان البنود، ورؤوس الرجال وهي تسقط عن كواهلها، والدماء تسيل، حتى سلم أصحاب السفينة لأصحاب الشواني فساروا بها والأبواق تزعق والطبول تضرب، إلى أن غابت عن الأبصار في لجج البحار، ثم كشف عن الحافظ فإذا هو قصره، ثم أمره أن يريه شيئا آخرا: فقال: ليخرج من في مجلس أمير المؤمنين إلى منزله، فأمرهم، فخرجوا حتى صاروا إلى حيث خيولهم واقفة بباب القصر، فلما قدمت إليهم ليركبوا فما منهم إلا من رأى فرسه كأنه ثور وقرناه كأعظم مايكون من القرون، فعادوا إلى الحافظ وأعلموه بما رأوا، فضحك وقال: أفدوا دوابكم منه، فقطع كل واحد منهم على نفسه شيئا فأمر له به ومازال مقيما بمصر حتى مات.

وكان في أيام الحافظ أيضا ابن محفوظ، سأله أن يريه شيئا من أعماله، فأمر بأربعة أطباق فضة أن تحضر، فلما وضعت بين يديه امتلأت ياسمينا في غير أوانه، وصار يعلو على كل طبق وهو مرصوص متماسك بعضه فوق بعض، إلى أن صار كأربعة أعمدة من رخام متقابلة.